المكتبة الثقافية

٤٤

الأسرة في المجتمع المصرى القديم

دكتور عبد العزيز صالح

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

اول سبتمبر ١٩٦١

المكتبة الثقافية
٤٤

الأسـرة
فى المجتمع المصرى القديم

دكتور عبد العزيز صالح

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة

أول سبتمبر ١٩٦١

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

مقدمة

لاتزال مصر القديمة حيّة فى مجتمعنا المعاصر ، وفى أوساطه الشعبية والريفية على وجه الخصوص ، بروحها وعاداتها ، وجلدها وإيمانها ، وأخلاقها وطباعها ، وبساطتها ومرحها ، وأخيلتها وامثالها ، فضلا عن أسماء قراها ومدنها .

وللأسرة المصرية المعاصرة حظ كبير من الصلة بماضيها البعيد ، وتقاليدها القديمة ، من حيث تفضيل الزواج المبكر ، وأوضاع الزوجين فى الأسرة ، ومعانى الألفاظ التى تعبّر عن الزوجة ، وحب الإستقرار فى المعيشة والسكن ، ...

ومن حيث الرضى بكثرة الأولاد ، والاتكال على الله الذى يخلق كل ولد منهم برزقه ، ...

ومن حيث عادات الوضع ، وعادات التطهر والختان ، ووسائل الوقاية والعلاج ، ومعانى أسماء الأطفال ، وألعاب الأولاد والبنات ،...

ومن حيث إصرار الأب على سلطانه على أبنائه ، وجهود

الأم فى الأسرة وخارجها ، وأدب أبناء الريف مع كبار السن عامة ،...

ومن حيث بعض عادات الزواج ، وحب الحياة العائلية فى بيت كبير ، على نحو ما كان يشيع بين العائلات المتماسكة حتى عهد قريب ،...

ومن حيث استمساك الطبقات الوسطى بمظاهر الحشمة، أكثر من طبقات العامة الكادحة برجالها ونسائها ، وأكثر من الطبقات الثرية التي منحت نساءها حرية فى البيت والكهنوت والمجتمع ، تزيد فى بعض نواحيها عن الحرية ، التى تمتعت بها النساء المصريات فيما قبل أجيال قليلة ،...

ثم من حيث الميل إلى التدين ، والسماحة ، وخوف الحساب والعقاب ، والتوكل على الخالق ، والتماس كرامات الأولياء .

بين الزوج والزوجة

أوصى أحد شيوخ المصريين فتاه فى اواسط القرن الخامس والعشرين قبل ميلاد المسيح ، وقال له:

« إذا أصبحت كفئاً كوّن أسرتك ، وأحبب زوجتك فى حدود العرف ، أو عاملها بما تستحق ... »

ووعظ شيخ آخر غلامه فى أواخر القرن السادس عشر ق. م ، وقال له :

« تخير زوجتك حين الصبا وأرشدها كيف تصبح إنسانة ، وعساها تنجب لك طفلا ، فإنها إذا أنجبته لك وأنت شاب استطعت أن تربيه وتجعله رجلا . وطوبى للرجل إذا أصبح كثير الأهل وأصبح يرتجى من أجل أولاده ... » .

افترض الحكيمان المصريان من أركان سعادة الأسرة : كفاية الزوج ، وتبكيره بالزواج ، ورشاد زوجته ، وحبه لها ، وعدله معها ، وإنجابه العيال ، وشعوره باهميته وسعادته حين يتكاثر أولاده ويصبح مرجوّا بينهم ومن أجلهم .

وتفاوتت حظوظ الأسر المصرية فى مقومات سعادتها ، ومقومات شقائها ، وفى كفايات ازواجها وزوجاتها ، ونجاح نسلها . ولكن على الرغم من هذا التفاوت الطبيعى الذى شهدته الأسر فى كل مجتمع وزمان ، نعمت الحياة العائلية فى مصر القديمة بنصيب من الاستقرار لم تعهده الشعوب القديمة الأخرى على الإطلاق .

واختلفت عوامل الاستقرار الأسرى بين طبقة وأخرى ، وكان أوضحها بين أهل الطبقتين الثرية والوسطى ، نوعا من التوازن المقبول، عدّل المجتمع به بين أوضاع الزوجين فى الأسرة . فالزوج بالنسبة إلى زوجته كان يوصف بأنه « هَىْ » بمعنى البعل ، و« نِبْ » أى ولى الأمر ، و « سُنْ » أى أخ . وكانت الأنثى بالنسبة إلى زوجها « حِمَة» أى حرمة ، و« مِرَة » أى حبيبة ، و « سُنَة » أى أخت ، وإذا تحدث الناس عنها قالوا « نِبت بِر » بمعنى ست البيت .

وابتغى حكيم القرن الخامس والعشرين ق.م ، وكان وزيرا يدعى بتاح حوتب ، أن يصور لفتاه حقوق الزوج والزوجة ، فشفع عبارة « أحبب زوجتك فى حدود العرف ، أو عاملها بما تستحق ... ، بقوله :

« أشبع جوفها واستر ظهرها ، وعطّر بشرتها بالدهن العطر ، فالدهن ترياق بدنها ...

«واسعدها ماحييت ، فالمرأة حقل نافع لولى أمرها .

«ولاتتهمها عن سوء ظن ، وامتدحها تضعف شرّها ،

«فإن نفرت ، راقبها ، واستمل قلبها بعطاياك تستقر فى دارك.

«وسوف يكيدها أن تعاشرها ضرة فى دارها ... » .

وزاد شيخ القرن السادس عشر ق. م ، وكان يدعى آنى ، فقال لغلامه :

« لا تقس على زوجتك فى دارها إن أدركت صلاحها .

«ولا تسألها عن شىء أين موضعه . . . إذا تخيرت له وضعه المناسب .

«افتح عينك وأنت صامت تدرك فضائلها ، وإن شئت أن تسعد فاجعل يدك معها وعاونها .

« يجهل كثير من الناس كيف يمنع الإنسان أسباب النزاع فى داره ، وقد لايجد أحدهم مبررا للنزاع فيعمل على خلقه . بينما يستطيع كل إنسان أن يوفر الاستقرار فى داره إذا تحكم سريعا فى (نزعات) نفسه .

«ولكن احذر أن تمشى فى طاعة أنثى ، أو تسمح لها بان تسيطر على رأيك » .

فى هذه الحدود ، صور المصريون وضع الزوج فى الأسرة، فحتموا عليه أن يتكفل بضروريات زوجته وكمالياتها ، وارتضوا له أن يستغنى بفضائل زوجته عن نقائصها، وشجعوه على أن يطريها ويلاينها . ولكنهم قدروا أنه رب الأسرة أولا وأخيرا ، وأنه قوام على زوجته يوجهها ويهذبها، ويؤدبها حين الضرورة، وعليه الا يستكين لها فيما يمس كرامته ويتنافى مع سلامة رأيه .

وصوروا وضع الزوجة فى أسرتها ، فارتضوها سيدة دارها ، أثيرة لدى بعلها ، فاضلة حتى يثبت العكس عليها ، يغرّها الثناء ويرضيها ، ويسوؤها أن تنافسها امرأة أخرى سلطانها فى دارها. ولكنهم قدروا أنها بحاجة إلى توجيه زوجها ، وإلى إدراك حقيقة وظيفتها فى دارها وبين أولادها .

* * *

ونمّ عن حرص رب الأسرة المصرى على استقرار أسرته، تصوير شعبي ساذج لطيف فى مخطوط لتفسير الأحلام ، ترجع كتابته إلى القرن العشرين ق . م ، اعتبر أصحابه طلاق الزوجة وتعدد الزوجات من الشرور المستطيرة ، فقالوا :

« إذ رأى الإنسان فى رؤياه ناراً تحرق فراشه ، فذلك شر ، وتاويله طلاق زوجته .

وإذا رأى وجهه فى مرآة ، فذلك شر أيضاً ، وتاويله زواجه بزوجة أخرى ،

وإذا رأى أنه يخلع مقعدا من قاربه ، فهو شر كذلك ، وتأويله حرمانه من زوجته » !

وأدى حب الاستقرار بين الأزواج المصريين إلى تقليل تعدد الزوجات بينهم إلى حد معقول . وذلك على الرغم من أن التعدد كان مشروعا لديهم ، وأن فريقاً من الفراعنة والأثرياء وأواسط الناس وطغامهم أيضاً ، أخذوا به وتمادوا فيه ، وأن بعض الزوجات ارتضينه وتسامحن فيه ، وأن بيوت المرأة فى عصور الرخاء والترف لم تخل من وجود الجوارى والسرايا وملك اليمين.

وسجلت المصادر المصرية أخباراً طريفة عن ضرائر راضيات متسامحات . فصورت إحداهن مع أبناء ضرائرها الخمسة يشاركونها متع الحياة فى مناظر مقبرة زوجها ، ويقدمون الهدايا إليها ، وهى على اعتاب الآخرة . وروت أن عجوزاً يئست من

عقمها، فاوحت إلى زوجها أن يبنى بجاريتها ابتغاء الخلف، ففعل، وأنجبت له الجارية بنين و بنات وقرت عينه بهم. فرضيت العجوز بالأمر الواقع وتبنت أبناء جاريتها و خصصت لهم نصيباً من ثروتها المتواضعة ، وزوجت بنتا منهم لأخيها . وسجلت المصادر تسامحاً لطيفاً عن ضرتين اخريين أطلقت إحداهما اسم ضرتها على ابنتها ، و اطلقت الثانية اسم ضرتها على بناتها الثلاث اعترافاً بجميلها .

* * *

استحب المجتمع المصرى القديم الزوج الغيور وأبى الخلاعة من الأنثى، وارتضى القتل عقاباً للزانية ذات البعل ومن زنى بها . وبالغ الحكماء فى تحذير فتيانهم من مخالطة النساء ، فقال بتاح حوتب لفتاه :

« احذر مخالطة النساء ، فما طاب مكان حلان فيه ، ومن سوء الرأى أن يتلصص عليهن إنسان .

وكم من امرئ ضل عن رشاده حين استهواه جسم براق ثم تحول عنه إلى هباء ، وأصبحت فترات استمتاعه القصار أضغاث أحلام ، وأفضت به إلى الهلاك » .

وعقب بتاح حوتب على تحذيراته بعبارات تشبه الأمثال السائرة ، قال فيها :

« ينساق الفتى إلى الإثم والنُّهى ينهاه ، ألا تفعل الإثم فالإثم عار ، وانقذ نفسك من تأنيب الضمير كل نهار » !

بيد أنه على الرغم من دعوة التحفظ التى دعا الحكماء أبناءهم إليها ، لم يؤد حرص المصرى على زوجته إلى إلزامها الحجاب وإبقائها حبيسة دارها . فظل لسيدات الطبقتين الثرية والوسطى نصيب من الاشتراك فى شئون المعابد وحفلات الدين وخدمة الأرباب ، ولم ير المصرى بأساً فى أن تخرج زوجته بأطفالها لزيارة معارفها ووراءها بعض خدمه أو خدمها ، وإذا مرضت لم يكن يأبى أن يعودها الطبيب فى دارها .

ولم يؤد تحفظ الأسرة المصرية إزاء الأغراب إلى أن توصد بابها دون الأقارب والأصدقاء . ولم تخل ليالى الأسر الغنية من دعوات للرجال والنساء ، يجلس فيها كل زوج مع زوجته على أريكة عريضة ، أو يتخذ الرجال مجلساً يجمعهم ، وتجلس النساء فى مجلس يجمعهن .

ولم تكن محافل السراة تخلو عادة من رقص وموسيقى وتطريب وشراب .



نسوة يتاهبن لوليمة موسيقية راقصة ، ترتدى الوصيفات فيها ثيابا تشبه ثياب المدعوات .



ركن فى حفلة نسوية راقصة

وتعاقبت على الأسر الثرية عهود مترفة ، لم تتردد نساؤها في أن يعقدن مجالس الشراب ويسرفن فيه ، ولو أن شرابهن لم يكن مسكراً عنيفا دائماً، وإنما كان منه إلى جانب الخمر المعتقة ، مشروبات تشبه البيرة الطازجة وسوبيا الشعير .

* * *

سجلت وثائق المصريين أخباراً طريفة عن أزواج مثاليين ، عاتب أحدهم روح زوجته المتوفاة حين خيّل إليه أنها كانت سبباً في مرضه ، فذكّرها بما أسلفَ لها من نعم ووفاء ، وقال :

« اتخذتك زوجة حين الشباب ، واستقررت عندك ،
وتقلبت في شتى المناصب وبقيت عندك ،
وما حدث أن تخليت عنك أو ألحقت هما بقلبك ، ...
وما أتاني إنسان بشأنك وتقبلت منه شيئا ضدك ، ...
وما أخفيت سرا عنك طيلة حياتك ، ...
وما أسأت إليك قط أو عاملتك معاملة السيد
وما هجرتك ... أو دخلت داراً غير دارك
وما جعلت أحداً يعيبني على مسلكي إزاءك ... »



وحدة متآلفة من زوج وزوجة وابن وأربعة احفاد يلهون بأفراخ الطيور

وعبرت متون الدين عن المثالية نفسها للأزواج ، فأكدت أنهم لم يكونوا يرضون عن زوجاتهم بديلا فى عالم الآخرة ولو تعددت جواريهم . وسجلت دعوات لهم يرجو الزوج فيها ألا يعترضه عائق أو معترض يحول دون أن يلتئم شمله بزوجته وبنيه فضلا عن أمه وأبيه ، سواء استقر معهم فى رحاب السماء أو الأرض او طاف بهم على سطح الماء ، على حد قول واحد منهم !



عنخس پان أتون زوجة توت عنخ أمون تعطره بالطيب



جلسة عائلية بين توت عنخ أمون وزوجته يصب لها الشراب وهى جالسة تعتمد على ساقه

وقابلت اغلب الزوجات وفاء أزواجهن بالحب والطاعة. ولم تأب زوجة أن تعلن تعلقها بزوجها أمام ضيوفها ، أو أن يصورها المصورون وهي تعطر صدره بالطيب ، أو تتخير له أطايب الزهور ، أو تلاعبه بالنرد ، أو تروّح له وتقف خلفه بالشراب وهو يلعب النرد مع قريب عزيز . ولم تأب أن يمثلها المثالون وهي تحتضن خصر بعلها بساعدها وتلمسه بالساعد الآخر ، كناية عن تعلقها به واعتمادها عليه ، أو تجثو لدى ساقيه في إعزاز وإكبار ومحبة .

وجسّد أهل الأساطير مثالية الزوجة ومثالية الأم في شخص الربة إيزيس ، وصوروها بمشاعر بشرية صريحة ، يتعاقب فيها الوفاء والعناد ، والسماحة والعنف ، والرحمة والنقمة ، على حد سواء .

وكانت إيزيس أختاً وزوجة للمعبود المصرى أوزيريس ، فعاشت معه كما تحكى الأساطير على أسعد ما يعيش به الأزواج ، وشاركته هداية الناس ومسئوليات الحكم ، ولكن الحسد والحقد استعرا ضدهما في نفس أخ ثالث لهما يدعى ست ، فكاد لزوجها وقتله ، واغتصب عرشه .

ولم تخضع إيزيس للغاصب القاتل ، وظلت وفية لزوجها المقتول ، وابتغت أن تجعل له خليفة من نفسها يسير على نهجه ، فاستعانت بدينها وسحرها حتى ردت عليه روحه ، وحملت منه حملا ربانياً ، وأنجبت منه طفلا ترملت به وشغفت به ، واعتزمت أن تنشئه النشأة القوية الصالحة ، رغم أنف أعدائه وأعدائها ؛ وأن تعاونه على استرجاع عرش أبيه والانتقام من قاتله .

وتجلدت إيزيس وجاهدت ، وحاولت أن تشهّر بأخيها القاتل لدى الأرباب والناس ، وكادت له عدة مرات ، ومكنت لولدها منه ، ودفعته إلى قتاله ، وشاركته فى نزاله ، حتى إذا أوشك على الهلاك استنجد بها ، فرق قلبها من أجله ، واستجابت لنداء الأخوة والدم على الرغم من تنكره لها ، وأنقذته من القتل ، وارتضت التبعية منه لولدها ، بعد أن أقر بحقه فى عرشه المسلوب.

واعترفت أقاصيص المصريين بيدوات بعض الزوجات وبالغت فيها. فصورت قصة من القرن السابع والعشرين ق. م ، خيانة زوجة كاهن كبير هامت بحب فتى من أهل منف ، فتجرأ الفتى واعتاد أن يختلى بها خلسة فى حديقة قصرها ، وإذا قام عنها اغتسل فى بركة صغيرة بالحديقة نفسها .

وعلم الكاهن بعبث العاشقين ، فاستعان بسحره ، وشكل

تمساحا صغيرا من الشمع ، وتلا عليه أوراد سحره ، وهيأه لكى يتلقى عنه أوامره ، ثم أوحى إليه ان يلقف عشيق زوجته إذا نزل البركة . وعهد الكاهن بتمساحه المسحور إلى أحد أتباعه ، وأوصاه أن يلقى به فى الماء حين ينزله الفتى . وتم ما أراده الكاهن ، فتلقف التمساح غريمه . ومكث به تحت الماء سبعة أيام كاملة . ثم دعا الكاهن فرعون زمانه إلى داره ، واستدعى أمامه التمساح المسحور ، فخرج من الماء يجر فريسته بفمه . وارتاع الفرعون من هول ما رأى ، ولما أفرخ روعه وعلم بالقصة ، أمر التمساح أن يفتك بالفتى الزانى جزاء جرمه ، وقضى على الزوجة الزانية بالحرق وذر رمادها فى النهر .

وصورت قصة أخرى من القرن الثانى عشر ق . م ، ما تأتيه الأنثى اللعوب فى بيت ريفى صغير . وأسهبت القصة فى وصف الحياة الريفية ، وجعلت أبطالها ثلاثة ، إنپو وهو صاحب دار ومزرعة ، وزوجته الفاتنة اللعوب ، وباتا شقيقه الصغير .

ووصفت القصة باتا الصغير بآيات القوة والإخلاص والوفاء ، فصورته مؤيدا بقدرة ربانية ، وزعمت أنه عرف منطق الحيوان ، ونسبت إليه المهارة المطلقة فى شئون الزراعة والرعى .

واعتاد باتا أن يخرج بماشية أخيه مع الفجر إلى الحقل ، فيحرث أو يحصد ويرعى قطيعه، ثم يعود فى المساء محملا بخيرات الحقل وألبان البقر ويقدمها راضيا بين يدى أخيه وزوجته . وبعد أن يتناول عشاءه ينطلق إلى حظيرة الماشية ، فينام فيها وحيداً قانعاً . فإذا اقترب الفجر أعد إفطار أخيه ، وقدمه إليه ، ثم أخذ إفطاره معه وساق ماشيته إلى الحقل والمرعى . وكان يحدث أحياناً ، أن تتسار الماشية فيما بينها بأن الكلأ فى مكان بعينه وفير نضير ، فيفهم باتا قولها ويحقق لها رغبتها ، وينتجع بها ما توده من العشب والمرعى .

ولما حل موسم الزرع قال له أخوه ، هلم أعد الثيران للحرث ، فالأرض انحسر ماؤها وتهيأت للزرع . وآتنا ببذور نغرسها مبكرين . فأطاع باتا ، وصحب أخاه إلى الحقل ، وانشغلا فى الحرث ، وفاضت نفساهما بالأمل لقيامهما بالعمل مبكرين فى بداية الموسم . ولكن حدث بعد فترة أن اضطرا إلى وقف العمل لنفاذ البذور ، فأرسل إنبو أخاه الأصغر إلى القرية وأوصاه أن يسرع فى إحضار المزيد من البذور .

ولما بلغ باتا الدار ألفى زوجة أخيه تضفر شعرها ، فناداها فى مرح وبساطة وقال: « انهضى وناولينى كمية من البذور حتى

أعجل بها إلى الحقل ، فأخى ينتظرنى ، ولا تعوقينى » . ولكن الأنثى تثاقلت وقالت له اذهب أنت إلى مخزن الغلال واحمل منه ما تشاء ، ولا تضطرنى إلى ترك ضفائرى .

ودخل باتا المخزن ، وأعد غرارة كبيرة ، واكتال شعيراً وحنطة . ولما خرج بهما سألته : كم احتملت على كتفك ؟ فأجاب « ثلاثة مكاييل من الحنطة واثنين من الشعير » . فحاورته قائلة: « فيك بأس شديد ، وأشهد أنك تزداد قوة وجسارة على الدوام » . ودبرت أمراً فى نفسها ، ثم هبت واقفة وتعلقت به ، وقالت هيت لك ، ودعنا نمرح ساعة ونضجع ، فذلك خير لك ، ولسوف أخيط لك ثيابا حساناً . لكن الفتى فوجىء وأجفل ، وبدا فى هيئة فهد الصعيد الغضوب كما تقول الأسطورة ، واربد وجهه من سوء ما دعته إليه . فأجفلت المرأة بدورها وخشيته خشية شديدة .

وقال لها الفتى « اسمعى ، أنت بالنسبة إلى فى منزلة الأم ، وزوجك فى منزلة الأب ، لأنه أكبر منى ، وقد تعهدنى وربانى . فلم هـذا العار الذى تدعيننى إليه ؟ إياك أن تفاتحينى فيه مرة أخرى ، ولك من ناحيتى ألا أخبر أحداً به أو أدعه يخرج من فمى إلى أحد » !

واحتمل باتا حمولته ، وانصرف إلى المزرعة ، فلما بلغ أخاه استأنف العمل كدأبه دون أن ينبس ببنت شفة .

ولما حان المساء انفصل الأخ الأكبر وقصد داره ، وبقى الأصغر خلف ماشيته حتى أكمل حمولته من خيرات الأرض ، ثم ساقها أمامه ليبيت بها فى حظيرتها .

وخشيت زوجة إنپو عاقبة زلتها ، فاستعانت بعقار جعلها كالمريضة أو كالمضروبة . فلما بلغ بعلها داره وجدها ممددة متهالكة ، فلم تصب الماء على يده كعادتها ، ولم توقد المصباح قبل مجيئه ، ووجد الدار فى ظلام دامس . فاقترب منها وسألها عمن أساء إليها . قالت : « لم يحادثنى سوى أخيك ، أتى يأخذ البذور ووجدنى وحيدة ، فراودنى عن نفسى وأمسك شعرى ، فأبيت أن أطيعه ، وقلت له ، ألست فى منزلة أمك ، وأخوك فى منزلة أبيك ؟ فغضب وآذانى حتى لا أبوح لك بأمره . فإذا تركته يعيش مت أنا ، وأخشى إذا رجع فى المساء وفاتحته فى عاره أن ينسب السوء إلى » .

واربدّ وجه الزوج ، وشحذ خنجره ، واختبأ خلف باب الحظيرة ، ونوى أن يقتل أخاه حين رجوعه .

وعاد باتا حين الغروب ، محملا بخيرات الأرض كعادته ، فلما

دخلت أولى بقراته الخطيرة همست له : « أخوك واقف أمامك بخنجره ليقتلك ، فاهرب من أمامه » وفهم باتا قولها ، ثم سمع مثله من البقرة التى تلتها ، وتطلع أسفل الباب فرأى قدمى أخيه، فألقى حمولته على الأرض وأطلق العنان لساقيه ، وتبعه أخوه .

وتطلع باتا فى محنته إلى ربه رب الشمس رع حرآختى ، وناجاه :« مولاى الكريم ، أنت تفصل بين الآثم والبرىء » . فاستجاب رع لدعائه وفصل بينه وبين أخيه بنهر عظيم ملأته التماسيح . وضرب الأخ الأكبر كفيه من الغيظ ، فناداه أخوه من الضفة الأخرى : الزم مكانك حتى يطلع رب الشمس ونحتكم إليه .

وتجلى الرب رع حرآختى حين الصباح ، وتطلع كل من الأخين إلى الآخر . فقال الأصغر لأخيه : « لم طاردتنى لتقتلنى قبل أن تسمع دفاعى؟ ألست أخاك الأصغر وأنت أب لى ؟ إنك حين أرسلتنى لآتيك بالبذور دعتنى امرأتك إلى الخنا ، ولكنها قصت عليك العكس . ثم قص قصته عليه ، وخنقته العبرات ، فاستل بوصة حادة وقطع إحليله ورماه فى الماء ، ليثبت لأخيه زهده فى الخنا وأهل الخنا ، وكاد يغشى عليه من فرط الألم .

وندم الأخ الأكبر ، ولم يتمالك نفسه فبكى ، ولكنه عجز عن أن يصل إلى أخيه خوفا من التماسيح .

ونادى باتا أخاه ، إذا ظننت بى السوء مرة ، فهلا تذكرت لى خيرا فعلته من أجلك ؟ عد إلى دارك واجمع ماشيتك ، فلن أمكث فى أرض تعيش فيها ، وسأذهب إلى وادى الأرز . وعليك أن تسرع إلى مساعدتى إذا علمت أن سوءاً ألمّ بى ، فلسوف أنزع قلبي وأضعه فوق زهرة أرز . فإن حدث أن قطع أحد الشجرة وسقط قلبي فابحث عنه، ولا تمل البحث ولو أنفقت فى البحث سبع سنين . فإذا وجدته ضعه فى ماء بارد ، ترد علىّ الحياة . ولسوف تعلم آية سقوطه حين تقدم إليك كأس جعة فتجدها أزبدت واعتكرت ، فإن حدث ذلك فلا تتوان فى الرحيل إلى .

وانطلق الفتى إلى حال سبيله ، ورجع أخوه إلى داره ، يحثو التراب على شعره ويضع يده على رأسه ، ثم اندفع هائجاً، فذبح زوجته ورمى جسدها إلى الكلاب ، وعاش يبكى أخاه .

وأسرفت القصة فى الخيال وتصوير المعجزات ، وروت أن باتا فارق أخاه إلى وادى الأرز فى لبنان ، وأن الأرباب عوضوه عن عفته بانثى رائعة الجمال، أحبها وأخلص لها ، ولكنها عاشرته

على دَخَل ، ربما لأنه أصبح عنّينا . ثم نقل البحر خصلة من شعرها إلى فرعون مصر ،فسحره عطرها، وأرسل رسله يبحثون عن صاحبتها ، فقتلهم باتا إلا واحداً عاد إليه يخبره بمقتل زملائه، فأرسل الفرعون إليها جماعة أخرى ومنهم امرأة عجوز تحمل إليها هداياه ، فقبلت الزوجة هداياه وانجذبت إلى سلطانه ، وصحبت رسله وسافرت إليه وتقربت منه، وأوحت إليه بإهلاك زوجها وقطع الشجرة التى ائتمنها على قلبه ، فاستجاب فرعون لكيدها ، وقطع الشجرة فمات باتا . ولكن أخاه تنبه إلى آية اعتكار كأس الجعة فظل يبحث عن قلب أخيه ثلاث سنين حتى وجده ودعا الأرباب فبعثوه فى خلق جديد . وأراد باتا أن يرد على زوجته عاقبة غدرها ، فتنكر لها فى هيئة فحل شديد مرة ، وهيئة شجرة مثمرة مرة ، وكلما كشفت أمره حرضت زوجها الفرعون على إهلاكه ، ولكنها ظلت تحيا فى نعيم فاتر وقلق متصل حتى ظهر الحق ، وعوض الأرباب زوجها القديم بعرش مصر وملكها العريض ، فقبض عليها وتحاكم معها إلى قضاته ، فأدانوها ولقيت حتفها جزاء غدرها .

وصورت أساطير الدين للربات الإناث بطشة دونها بطشات

الأرباب الذكور ، وتخيلت وراء الزوابع والأعاصير العنيفة ربة تدعى « باستت » صورتها برأس قطة . وتخيلت للحرب ربة أخرى أطلقت عليها اسم « سخمت » أى المقتدرة وصورتها برأس لبؤة .

وروى أهل الأساطير أن ربهم بعد أن أوجد نفسه بنفسه وأصبح ملكا على الأرباب والبشر أجمعين تقدمت به السن ، فتآمر ضده جماعة من أشرار الناس، وكفروا بنعمته وانتشروا فى الصحارى ، فآلمه كفرهم وطغيانهم ، واستشار الأرباب الكبار فى أمرهم ، فأفتاه شيخهم ألا يواجه العصاة بشخصه خشية أن يهلكوا وتفنى الدنيا معهم ، واوصاه ان يرسل عليهم عينه . فأخذ الإله بمشورته وسلط عليهم عينه ، فتشكلت العين فى هيئة الربة حتحور ، وفتكت بالعصاة وشربت دماءهم ، واستمرات طعم الدم ولذة الانتقام ، فبدات تأخذ أبرياء الناس بجريرة العصاة ، وأوشكت أن تفنى البشر أجمعين، لولا أن تدارك أبوها البشر برحمته ، وأوحى إلى أوليائه أن يتحايلوا على فتاته العاتية بشراب مسكر عساه يبعث التراخى فى جسدها ويصرفها عن عنفها ، فرووا الحقول بأنهار من الجعة ، وخلطوا الجعة بمسحوق أحمر يشبه أوكسيد الحديد جلبوه من

أسوان . فلما رأت حتحور المزيج الأحمر حسبته دما مسفوكا ، وأوغلت فيه وشربت منه بشره حتى انتشت ، ثم شعرت بخدر لذيذ ، وتراخت عن التمادى فى القتل والعنف ، ونجا الناس من بطشها .

الولادة والمواليد

ألحت نساء مصر القديمة فى مغالبة العقم إلحاحاً كبيراً ، واستعن فى سبيل الحمل بحنكة الأطباء ، وحيل السحرة والرقاة ، وتوسلن بفيض الأرباب والربات ، وبركات الموتى والأولياء .

وبقى من شواهد اهتمام الطب المصرى بالإناث ، مخطوط طبي خصصه أصحابه لأمراض النساء ، ومخطوطان آخران تضمنا ثمان وسائل زعم أصحابها أنهم يستطيعون أن يفرقوا بها بين الأنثى الخصبة والأنثى العقيم .

وشاءت المصادفات أن تتصف هذه الوسائل الباقية بسذاجة كبيرة . فأوصت إحداها أن تخلط الأنثى قطعة شمام بلبن والدة ولدت طفلا ذكرا ، ثم تأكل الخليط ، فإن قاءته استبشرت بقرب حملها ، وإن استقر فى جوفها وشعرت بانتفاخ بطنها أيقنت عقمها .

والغريب أنه على الرغم من سذاجة هذه الوصفة ، تردد صداها وصدى أمثالها طوال العصور القديمة ، فى مصر وغيرها ،

وأوصى الحكيم الإغريقي أبقراط (هيبوكراتيس) بأن تخلط الأنثى تينا بلبن والدة وضعت مولودا ذكرا، ثم تأكله. فإن قاءته استبشرت بقرب حملها، وإن احتفظت به في جوفها أيقنت باستحالة حملها!

وأوصت وصفة مصرية أخرى متأخرة، أن تبول الأنثى على نبات معين، فإن أزهر صدق حملها، وإن ذبل كان حملها كاذبا.

وتردد صدى هذه الوصفة هي الأخرى، طوال العصور القديمة، وقال أهل العصور الوسطى الأوربيون بمثلها، فأوصى طبيب إنجليزي من القرن التاسع تلميذه بوصفة «لمعرفة المخصب من العقيم، رجلا كان أو امرأة»، وقال له: «ضع خمس قمحات في حفرة صغيرة، وسبع فولات في حفرة أخرى. واجعل من استشارك يبول في الحفرتين، ولاحظ الحبوب بعد أسبوع، فإن نبتت كان صاحبها مخصبا، وإن ضمرت كان عقيما»!

وتخلف من أدوات الرقاة والسحرة المصريين صحن كبير نقش صاحبه باطنه وما حول حافته بصور الضفادع، وكان فيما يبدو يملأه بسائل ما، ثم يتلو عليه رقاه ويسقيه لزائراته من النساء.

واستعانت النساء بتمائم خاصة لنجاح الحمل . كان الرقاة يصنعون بعضها على هيئة إناث الحيوان التي تمتاز بكثرة النسل مثل الضفادع ، ويشكلون أخرى على هيئة إناث الحيوان التي تتصف بضخامة البطن والثدى مثل أفراس النهر .

والتمس نفر من الأزواج والزوجات عون الأولياء وكرام الموتى ، فوضعت أنثى تمثالا صغيرا فى قبر أبيها كتبت عليه « ارجو أن تهب ابنتك سح طفلا » . وأسقط شاب رسالة فى قبر أبيه توسل إليه فيها أن يساعد امرأته على الحمل ، ونجح الدعاء ، وولدت الزوجة طفلا جميلا ولكنه سقيم ، فأسقط الشاب رسالة أخرى لأبيه قال له فيها « . . . أرجو طفلا ذكرا ثانيا سليما . . . » !

لم يكن شغف الآباء والأمهات المصريين بالأطفال عن رغبة فى إشباع غرائز الأبوة والأمومة وحدها ، وإنما كانت وراءه دوافع اجتماعية ودينية كثيرة :

فقد نشأ مجتمعهم القديم نشأة زراعية فى جوهره . والكيان الاقتصادى للمجتمعات الزراعية يتأثر بوفرة الأيدى العاملة أو قلتها . وما يصدق من ذلك على اقتصاديات المجتمع الكبير يصدق كذلك على دخل كل أسرة زراعية فيه ، سواء عملت فى أرضها

أو استؤجرت فى أرض غيرها. فكلما تكاثر أفرادها كلما تهيأت الفرص لزيادة دخلها.

وشجعت البيئة المصرية أهلها على طلب العيال دون خشية العوز المدقع والإملاق. وكانت وسائلها التى أجراها الرحمن فيها، هى تعاقب فيضانات النيل ويسر الانتفاع بمياهه ويسر تصريفها، وخصوبة الأرض وسخاؤها، ووفرة النباتات والمزروعات ورخصها؟

وطمأن ذلك كله أهل القرى إلى معيشة مأمونة العواقب لأنفسهم ولأولادهم، وهوّن على فقرائهم نفقات الأسرة وتكاليف الأولاد.

وحين زار المؤرخ ديودور الصقلى مصر فى القرن الميلادى الأول، استرعت هذه الأوضاع نظره، فكتب يقول: «يربى (عامة) المصريين أولادهم فى يسر واقتصاد بالغين، فيطعمونهم عصيدة يطبخونها من مواد رخيصة وافرة، ومن سيقان البردى بعد شيها على النار، وجذور نباتات مائية يستسيغون طعمها نيئة ومطبوخة ومشواة»

واطمأن المصريون إلى جود أربابهم كما اطمأنوا إلى جود بيئتهم، وسرت بينهم روح الإيمان بإله رحيم، وصفوه بأنه يدبر

قدرة النسل للنساء ، ويخلق من النطفة بشراً ، ويهب الحياة للطفل فى بطن أمه ، ويتعهده فى الرحم ، وإذا ولد أنطقه ودبر أمره . ووصفوه بأنه إله يعنى بأفراخ الحيوان كما يعنى بأجنة البشر ، ويمكن أن يوكل الأمر كله إليه .

وسبحوا هذا الإله الكريم فى بعض عهودهم ، فقالوا :

« خلقت العشب لتحيي به البهم ، وخلقت شجر الحياة للبشر »
« تهب الحياة أسماك الماء والطير فى كبد السماء »
« ترسل الأنفاس للفرخ فى الدحية وتحيي الدودة فى التربة »
« قدرت ما يحيي النمل والزواحف والهوام »
ورزقت الفيران فى الجحور ، ورعيت الطير على الشجر » !

وتعدى إيحاء الدين بطلب العيال أمور الدنيا إلى أمور الآخرة ، فاعتقد المصريون أن سعادة المرء فى أخراه ترتبط ارتباطا وثيقا بما يؤديه ولده من طقوس الجنازة حين وفاته وما يؤديه من شعائر القربان بعد دفنه ، وما يتكفل به لإحياء اسمه وإبقاء ذكراه .

وتحدث ورد من متون الأهرام على لسان ولد بار ، يناجى أباه ، فقال : « انهض أبى حتى ترى هذا ، انهض أبى حتى تسمع هذا الذى يفعله ولدك من أجلك » .

وتحدث ورد آخر من متون التوابيت على لسان والد تنعم بسعادة الدارين بفضل ولده، فقال: «أصبح مقعدى فى حورتى، ولم يكن أبى هو الذى وهبه لى، وليست أمى هى التى وهبته لى، ولكنه وريثى هذا الذى أعطانى إياه» !

وترتب على هذه التصورات كلها أن اعتبر المصريون ثراء الدنيا قليل الغناء إذا أعوزته نعمة الولد، ولم يتصوروا سبيلا لسعادة من حرم من نعمة النسل غير التبنى، يستفيد منه لنفسه ويفيد به مجتمعه. وعبروا عن ذلك فى رسالة قال فيها صاحبها لصديقه الثرى العقيم: «إنك وإن تكن موفور الثراء إلا أنك لم تعمل على أن تهب شيئاً لأحد. وأولى بمن لم يكن له ولد أن يتخير لنفسه يتيما يربيه، فإذا نما عنده صب الماء على يده، وأصبح كأنه الولد البكر من صلبه».

وشارك فراعنة البلاد أهلها فى تمنى كثرة الأولاد لأنفسهم ولمصر كلها. وانعكس صدى هذه الرغبة فيما سجلوه من نصوص أكدوا فيها أن أربابهم وعدوهم بوفرة الخلف ومنوهم بعمران أرضهم. فادعت الملكة حاتشبسوت أن أربابها قالوا لها: «سيعمر الصعيد وتعمر الدلتا بالذرارى، ويزداد أولادك، كما زادت بذور الخير التى غرستها فى نفوس رعاياك».

رحا المصريون الأولاد لدنياهم واخراهم ، وساعدتهم طبيعة أرضهم وأوضاعها الاجتماعية والدينية ، على أن يستزيدوا من العيال دون أن يتوقعوا عنتاً كبيراً و إملاقاً . ولكن على الرغم من ذلك كله ، لم يكن لديهم ما يمنع الأم من أن تتجنب الحمل إذا ضعفت عنه ، أو تخوفت العجز معه عن تربية صغارها إذا تعاقب الواحد منهم بعد الآخر . واهتموا بإيجاد وسائل معينة تؤدى إلى « منع الحمل عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام » على حد قول طبيب مصرى قديم .

ومع ما قدره المصريون من فضل ربهم الذى يصون الجنين فى بطن أمه ، ويحفظ تنفسه وينزل السكينة عليه فلا يئن ولا يبكى ، على حد قولهم ، فطنوا فى الوقت نفسه إلى أن غذاء الأم هو السبب المباشر فى نمو الجنين وتغذيته .

وسمع المؤرخ ديودور الصقلى هذا الرأى منهم ، فأعجب به ، وكتب يقول « يعتقد المصريون أن الأب هو المسئول فعلا عن عملية الإنجاب ، ولكنهم يعتقدون فى الوقت نفسه ، أن الأم هى الوسيلة إلى تزويد جنينها بالغذاء والحنة (أى الحماية والحفظ) » .

ولا يستبعد أن يكون اهتمام السيدات حتى الآن بوحم الحامل ،

وتلبية ما تشتهيه فى فترة حملها خشية أن يتأثر تكوين الطفل بحرمانها ، أثرا من آثار التفكير القديم .

وصورت مخطوطات الطب والرقى بعض جوانب العناية بالحوامل ، كما صورت شغف أهلها بتخمين نوع الجنين ذكراً كان أو أنثى . وجعلت من وسائل هذا التخمين أن تبول الحامل على حفنتين من الشعير والحنطة ، بشرط أن تضع كل حفنة فى خرقة على حدة . فإذا نما الشعير أكثر من نمو الحنطة كان الجنين ذكرا ، وإذا نمت الحنطة أكثر من نبات الشعير كان الجنين أنثى . وربما ظن المصريون أن بول الحامل يتضمن بعض الإفرازات التى تخرج من الجنين وتحيط به ، وتوهموا أن غلبة بعض هذه الإفرازات على بعض تنم عن جنس صاحبها. ولاحظوا بالتجربة أو بوحى المصادفة أن حبوب الشعير تسمو بإفرازات الذكر أكثر مما تنمو بإفرازات الأنثى ، وأن العكس بالعكس صحيح بالنسبة إلى حبوب الحنطة ... !

ورمزت أساطير المصريين إلى ما توهمته الأمهات الشغوفات بالخلف قبل الحمل وبعده. وأشهر هذه الأساطير أسطورة رواها أتباع الملكة حاتشبسوت عن ظروف مولدها ، وخلطوا فيها بين

الواقع و بين تهاريف النساء وأخيلة الكهان وحيل أهل السياسة. وسجلوا صورها وأخبارها فى لوحات ملونة على جدران معبدها فى غرب الأقصر. ويمكن تفسير هذه الصور والأخبار على النحو التالى :

كانت حاتشبسوت ابنة ملكة من دم فرعونى أصيل تسمى أحمس. وورثت أحمس عرش مصر عن أبيها أمنحوتب الأول، واقترنت فى صغرها بأمير شاب أو أخ غير شقيق تولى حكم مصر بعد أبيها وتسمى باسم تحوتمس الأول. وثكلت أحمس فى شبابها عدة أبناء يحتمل أنهم كانوا ولدين وفتاة. وادعت الأسطورة أن هذا الوضع أهمّ طرفين : الإله الأكبر آمون رب الدولة وحامى عرشها، والملكة أحمس التى وجدت زوجها يتزوج غيرها، وخشيت أن يرث العرش بعده أحد أبناء ضرائرها، فتوجهت برجائها إلى ربها آمون، وتمنت أن يهبها مولوداً يصون العرش لفرعها الملكى الأصيل، فتلقف الكهان دعوتها وادعوا أنهم سيصلون بينها وبين ربهـا.

وبدأت الأسطورة بتصوير مشاعر آمون، فصورته يدبر أمره لإيجاد وريث شرعى يحكم مصر ويعوضها عمن سلف من أمرائهـا. وصورته ينصرف برغبته إلى الملكة أحمس بعد أن

تشاور فى أمرها مع صفيه ورسوله المعبود تحوت ، وبعد أن سمع منه الثناء المستفيض عليها .

ولما حزم آمون أمره ، ادعى الكهان أنه أرسل بشيراً بإذنه إلى أحمس . وصوروا هذا البشير على هيئة الرسول تحوت نفسه، وضمنوا بشراه أن آمون أسر إلى بقية الأرباب أنه سيهب احمس مولودا من صلبه يعتلى عرش البلاد . وأضافت الأسطورة أن الإله قضى بأن يجعل مولوده المرتقب أنثى .

واستفسرت الملكة البشير عن آية أو علامة ، فأوحى إليها أن تتزيى بزى المعبودة موت زوجة آمون المقدسة ، وأسر إليها أن ربهـا آمون سيزورها ، وأنه سيتلبس هيئة زوجها تحوتمس الأول .

وحين اقتربت الساعة واجتمع الزوج والزوجة ، أو الرب والملكة ، حومت عليهما هالة قدسية مباركة ، وتسامرا طويلا ، وباح كل منهما إلى الآخر بمكنون نفسه . وتأدبت الأسطورة فصورت لزوج المقدس يلامس الملكة باليد والرمز، دون ملامسة الجنس والشهوة ، كما صورت عددا من الربات يحضرن اجتماعهما ، دلالة على رمزية الاجتماع وطهارته .

وتحققت المعجزة ، وحملت الملكة ، وأوحى آمون إلى

المعبود خنوم المتكفل بخلق البشر ، ان يصور بدن الجنين من صلصال ، ففعل .وأسرع الكهان إلى أحمس على هيئة الأرباب ، وبشروها بصدق الحمل . فلما حان الوضع زارها المعبودان ، خنوم خالق البشر وحقت المولّدة ، وأخذا بيديها إلى سرير ضخم فخم ، ووعداها العافية وسلامة العقبي ، فاستسلمت أحمس لهما فى استبشار عريض عبّر مصور الأسطورة عنه بابتسامة حلوة مستبشرة سجلها على شفتيها الرقيقتين .

وصمتت الأسطورة عن تصوير الوضع ذاته ، وصورت ما أعقبه من بركات وسرور . وادّعت أن المعبود آمون تخيّر للمولودة اسم حاتشبسوت بعد حوار شائق بينه وبين أمها ، واعتبرها ابنته من صلبه ووريثة لعرشه . وادعت أن أرباب الحماية والفكاهة أفاضوا بركاتهم عليها وفرحوا بها ، وأن فريقاً من كرائم الربات تعهدن بإرضاعها ، وأن طائفة من أرواح الفراعنة الأقدمين شاركت فى التهليل لولدها ... !

وانتهت الأسطورة إلى خاتمة المطاف فى روايتها ، فأكدت أن الفرعون تحوتمس الأول الأب البشرى للمولودة ، تلقى إرادة ربه آمون عن رضاً ، وأعلنها على الناس ، فنادى بمولودته

حاتشبسوت شريكة له فى الحكم وتصريف الأمور، وعهد إليها بالعرش بعده .

ووصفت ظروف الوضع أسطورة أخرى ، صورت ميلاد ثلاثة توائم لامرأة مباركة تسمى « رودچدت » وكاهن من



أحمس فى طريقها إلى الوضع بين حقت وخنوم

أولياء المعبود رع يسمى « وسررع » . وادعت الأسطورة أن رودچدت حين أتاها المخاض لم يكن عندها من يعينها عليه، وأن الإله الأكبر رع أراد أن يعينها على الوضع، فأرسل إليها أربع ربات على هيئة البشر: قابلة وهي الربة إيزيس، وثلاث مساعدات وهن نفتيس وحقت ومسخنت، فضلا عن تابع عجوز حمل كرسي الداية وحاجيات التوليد، وهو المعبود خنوم.

واسترسلت الأسطورة في وصف ساعة الوضع وما ظهر خلالها من الكرامات، فذكرت أن المولدات انفردن بالحامل في غرفتها وأوصدن بابها عليهن وعليها، وجلست إيزيس أمامها تقوم بعملية التوليد، بينما جثت نفتيس خلفها، لتشد عليها بذراعيها وتكون سنداً لها حين المخاض وعوناً على دفع المولود. وجلست « حقت » تتعجل الوضع كما روت الأسطورة، أو تحمّي الطلق كما تقول نسوة اليوم، واكتفت الرابعة مسخنت بالتشجيع والهمهمة شأن العجائز المجربات المباركات. وكلما ولدت الوالدة توأماً بشّرته مسخنت بما قدّر له من حظ سعيد وقالت « ملك يتولى الحكم في هذه الأرض كلها ».

وغسلت الربّات المواليد، وقطعن لكل منهم حبله السرى، وأرقدنه فوق مهد متواضع صغير غطينه بغطاء كتاني بسيط.

وأراد تابعهن العجوز خنوم أن يؤدى دوراً يؤجر عليه ، فطمأن الوالدة على سلامة أبنائها الثلاثة ، وزودهم بالعافية ، كما روت الأسطورة ، ربما بدعائه المبرور أو بمسح أبدانهم الغضة بباطن كفه . وخرجت الربّات إلى الزوج ، فألفينه يرتدى ثوبه مقلوباً من فرط جزعه على زوجته وحملها ، فلما بشرّنه بالبنين ، انزاح القلق عنه ووهبهن ما كان يدخره فى داره من الشعير . وبعد أربعة عشر يوما تطّهرت النفساء ، واستعدت لمأدبة متواضعة أرادت أن تولمها للمهنئين وتشكر بها ربها على ما وهبها من سلامة وبنين .

* * *

ابتدع الأطباء وأدعياء الطب المصريون وسائل عدّة لتيسير الولادات العسرة . وضمّن أحدهم مخطوطا طبيا كتبه خلال القرن السادس عشر ق . م ، إحدى عشرة وسيلة ، تصلح « لاستخلاص الوليد من بطن السيدة » على حد قوله .

ولم يتردد الكهان والرقاة فى أن ينافسوا الأطباء والقوابل فيما كانوا يندبون إليه من الولادات العسرة ، وكانوا يلبسون ملابس خاصة ، ويمسكون عصيا خشبية معينة ، يستعينون بها حين يتلون رقاهم على إبعاد من تتوهمه الوالدة من أشباح وشياطين ، يتجمعون حولها ويؤخرون الوضع أو يفسدونه .

وتفاوتت رعاية الأم المصرية لوليدها بتفاوت الوسط الذى تنتمى إليه . وصورت المناظر والتماثيل القديمة بعض الأوضاع التى كانت الأمهات يتخذنها حين الرضاعة . فالفقيرات منهن كن يجلسن بأبنائهن على الأرض أو يفترشن الحصير ، وأكثر أوضاعهن شيوعاً حين الرضاعة ، هو أن تفترش الأم ساقيها من تحتها ، وتضع ولدها الرضيع فوق فخذها . وأقل أوضاعهن شيوعا هو أن تجلس الأم وتقيم ساقا وتثنى الأخرى ، ثم تسند



امرأة ثرية ترضع طفلها فى حديقة دارها ، وقد دثرته بدثار سميك يظهر منه طرفه العلوى الذى يكسو الرقبة والرأس ، وضمته إليها بشال عريض .

رضيعها على ساقها المنتصبة . اما ذوات النعمة من الأمهات فصورتهن مناظرهن يتبوأن المقاعد بأطفالهن فى استرخاء مريح ، وينعمن مع الإرضاع بأطايب الغذاء ورعاية الإماء والخدم .



تصوير كروكى لسيدة ثرية ترضع طفلها . وقد أحاطت بها جارية تدلك ساقيها ، وأخرى تحمل مرآتها ، وخادم يسارع إلى تلبية رغباتها ، فضلا عن نسناس مدلل يقبع خلفها .

واتخذت المصريات وسائل عدة لتيسير الرضاعة ، فكانت إحداهن إذا استشعرت جفاف لبنها استعانت بوسائل التطبيب التى يعرفها عصرها ، أو تعوذت بالرقى والتمائم . وتضمنت بردية

مصرية وسيلتين لإدرار لبن المرضعة ، أوصت إحداهما بان تحرق المرضعة عظام سمك فى الزيت وتسحقها ، ثم تدلك بها سلسلة ظهرها . وأشارت الثانية بأن تستعين المرضع بعفن الخبز، فتحرق رغيفاً عفناً ، وتخلطه بنبات معين اسمه « خساو » ثم تأكل خليطهما وهى جالسة تفترش ساقيها تحتها .

أما النساء اللائى اعتقدن فى نفع التمائم ، فكن يشترين من موالد الأولياء وأعياد الأرباب، تمائم رقيقة من المعدن والخزف ، مصورة على هيئة الثدى ، أو هيئة المعبودة إيزيس وهى ترضع طفلهـا الوحيد ، أو هيئة المعبودة حتحور فى شكل البقرة ، أو المعبودة تاورت فى شكل فرسة النهر ، ويعلقنها على الصدر أو على الثدى .

واستخدمت قصور الفراعنة المراضع منذ القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد على أقل تقدير . وخصصت لكل مولود فيها مرضعة أو أكثر من مرضعة ، وحاضنة أو أكثر من حاضنة ، وكانت تكلف المرضعة أحيانا بدور الحاضنة والمربية .

وحظيت أغلب مراضع الفراعنة بجزاء وافٍ ومكانة اجتماعية طيبة ، فخصصت لبعضهن ضياع كاملة ، وتمتع بعضهن بحقوق الأمهات على من تولين إرضاعه من الفراعنة ، وجاز لأبنائهن أن يتلقبوا

بلقب الأخوة فى الرضاعة للفرعون الحاكم ، كما جاز لأزواجهن أن يعتبروا أنفسهم فى منزلة الآباء للفراعنة . وكان يفرد لهن أحيانا جناح خاص من أجنحة القصر الفرعونى يسمى جناح الرضاعة أودار المراضع .

وجرى الأثرياء مجرى الفراعنة فى استخدام المراضع ، وتبعهم أهل الطبقة الوسطى . وتوفرت للمراضع فى أسرهم مكانة مقبولة سمت بهن عن مستوى التابعات والجوارى ، وسمحت لبعضهن بالإقامة فى أسرة الرضيع مدى الحياة .

واحتفظت المصادر المصرية من صوروفاء الرضيع بمرضعته ، والربيب بمربيته ، بما يدل على أن الطفل كان إذا بلغ سن الشباب وفارق أسرته وراسلها ، تعمد أن يستفسر من حين إلى حين عن أحوال مرضعته القديمة ، كما يستفسر عن أحوال أهله . فكتب شاب من أهل القرن العشرين ق م . ، رسالة إلى وكيل أعماله ، قال له فيها : « أرجو أن تكتب إلىّ عن كل ما يتعلق بصحة وحياة مرضعتى تيما » .

* * *

تفاوتت وسائل التطبيب فى الأسر المصرية باختلاف ظروفها واختلاف مستوياتها ، فشاعت بين أهلها عقاقير طبية ،

ووصفات شعبية، وتمائم وأحجبة، فضلا عن دعوات دينية ورقى مروية، كانوا يتلونهـا على العقار والوصفة الشعبية والتميمة السحرية، اعتقاداً منهم بان الدواء الذى يصفه المخلوق ينبغى أن يلتمس الناس نجاحه من الخالق .

وتعـارفت الأمهات وأدعياء الطب على وسائل التمييز بين لبن الرضاعة الصالح وغير الصالح . فاللبن الصالح تشبه رائحته رائحة مسحوق الخروب (؟) ، وغير الصالح تشبه رائحته رائحة خياشيم سمك «محيت» . وتعارفوا على وسائل أخرى زعموا انها تـكشف عن مدى قابلية المولود السقيم للعلاج قبل علاجه ، ومنها أن تسحق الأم جزءاً من مشيمته وتخلطه بلبنها ، ثم تسقيه إياه ، فإنْ قاءه تـكهنت أنه ميؤوس من شفائه ، وإن استقر فى جوفه اطمأنت إلى إمكان شفائه . ويستطيـع الطبيب بدوره ان يتسمع صوت المولود السقيم ، فإن سمعه يردد ... نى ... نى ، رجح أنه سيعيش ، وإن سمعه يداوم الأنين أو سمعه يقول ... مبي ... مبي ، ورآه يطاطيء رأسه رجح أنه قصير الأجل !

وابتدع الأطباء عقاقير لتنظيم تبول الطفل والتقليل من صراخه، وتخفيف أوجاع التسنين، وعلاج النزلات المعوية والرمد والسعال . ولا تزال بعض عقاقيرهم تستخدمها الريفيات حتى

الآن ، فالخشخاش كان ولا يزال يستخدم لتنويم الأطفال ، وامراض السعال كانت ولاتزال تعالج ببذور الكراوية وعسل النحل . وعالجوا النزلات المعوية بعقار يتكون من أطراف سيقان البردى وحبوب «سيت» ولبن ام وضعت مولوداً ذكرا ! وأوصت كتب الطب بعقاقير لتنظيم تبول الطفل ، ومنها ان ينقع الطبيب بردية قديمة مكتوبة فى الزيت الساخن،ويضعها على بطن الطفل حتي يتفاعل عليها نبات البردى وحبر الكتابة مع الزيت . او ينقع زهور نبات « نبيت » فى جعة طازجة ، ويسقى الطفل منقوعها . أو يعجن بذور « خنت » على هيئة أقراص يتناولها الطفل مع اللبن أربعة أيام إذا كان رضيعا ، او مع الطعام إذا فارق سن الرضاعة .

أما أوجاع التسنين ، فابتدعوا من عقاقيرها عقاراً غريبا ، وهو لحم الفأر المسلوق . والغريب أن لحم الفأرظل يستخدم لدى الإغريق والرومان فى عصورهم القديمة ، وعند المشارقة والمغاربة فى العصور الوسطى . ويقال إنه لايزال يوصف فى بعض جهات ويلز بانجلترا حتى الآن ، لأمراض التسنين وتقليل جريان اللعاب وعلاج السعال عند الأطفال !

ولم تقنع الأمهات بوقاية اطفالهن من الأمراض العضوية

الظاهرة وحدها ، وحرصن على وقايتهم من الحسد ، وما توهمنه من أذى الشياطين وأشرار الموتى . وتناقلن فى سبيل هذه الوقاية تعاويذ ورقى كثيرة ، مازالت بعض الأمهات يعوذن أطفالهن بأمثالها كلما جنّ الليل عليهم وبسط عليهم مخاوفه .

وليس من شك فى أن اعتماد التطبيب المصرى على العقاقير الفطرية فى بعض أموره ، واعتقاد الأمهات فى نفع الرقى والتمائم ، كل أولئك يوحى بأن توفيق المصريين فى وقاية أسرهم وعلاج أطفالهم كان توفيقا محدوداً ، لا سيما فى أوساط الفقراء والعوام . غير أن شأن المصرين فى ذلك ينبغى أن يقارن بمـا كانت عليه أحوال المجتمعات القديمة المعاصرة لهم ، وليس بما أصبحت عليه أحوال المجتمعات الحديثة . فالتطبيب الفطرى والاعتقاد فى نفع الرقى والتمائم كان من شأن الشعوب القديمة كلها . وامتازت الأسر المصرية الواعية بعادات معينة اعتبرها الإغريق القدماء آيات تحتذى ، وتتصل هذه العادات بنظافة البدن ظاهره وباطنه . ويمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا — غسل الطفل عقب ولادته ، وهو أمر يمكن أن يرتب عليه أن الأم المصرية كانت تستحب الاستحمام لطفلها فى

أعوامه الأولى . وقد لا يكون فى ذلك شىء غريب فى منطقتنا الحالى ، ولكن تتضح أهميته إذا قارناه بما ذكره المؤرخ بلوتارخ من أن أطفال أسبرطة كانوا يكتفون بالاستحمام فى أيام معينة من كل عام !

ثانياً — تقصير شعر الطفل ، وذلك أمر عادى هو الآخر ، ولكن هيرودوت رتب عليه نتيجة صحية مقصودة ، وهى رغبة المصريين فى تقوية جلد رأس الطفل وزيادة صلابته بتعريضه عاريا لحرارة الشمس .

ثالثا — عادة الختان ، وكانت عامة ، واعتبرها المصريون من عوامل نظافة البدن ، وارتضتها الأديان السماوية للأمر نفسه.

رابعاً — غسل اليدين عند الأكل ، وهى عادة إن لم يأخذ الطفل بها فى صغره ، فلا أقل من أنه كان يعتاد عليها حين يشب عن طوقه .

خامساً — الربط بين النظافة وبين التطهر بالنسبة إلى الأسرة بوجه عام ، كالتطهر من الجنابة ، وتطهر المرأة بعد الحيض وبعد النفاس ، وتطهر الكهان قبل قيامهم بالطقوس الدينية .

سادسا — تفضيل التوسط فى الطعام والشراب ، وعبر عنه حكيم قال لولده: « خسىء من شَـره جوفه » ، وقال: « إن قدحاً من الماء يروى غلة العطشان ، وملء الفم من حشائش الأرض يقيم أود القلب » .

وقال آخر لولده : « إذا طعمت ثلاث كعكات وشربت قدحين من الجعة ، ولم تقنع معدتك فقاومها ، ما دام غيرك يكتفى بالمقدار نفسه » .

وقال ثالث لولده : « لا تجبر نفسك على أن تشرب زقّ جعة » يريد بذلك أن يقول لا تغرّنك العافية فتحمل معدتك مالا تطيق.

سابعاً — روى ديودور الصقلى أن المصريين اعتادوا على الحقن والحمية والمقيئات على فترات متقاربة ، وأنهم برروا ذلك بأن أغلب الغذاء الذى يتناوله الإنسان يزيد عن حاجته ويولد الأسقام ، وأن الاستغناء عن بعضه يستأصل المرض ويكفل العافية . ولا يبعد أن الكبار كانوا يشجعون أبناءهم على هذه العادة منذ الصغر حتى يألفوها حين الكبر .

وليس من المستبعد ان هذه العادات التى اخذت بها الأسر المصرية الواعية فى النظافة والطعام والشراب ، كان لها بعض الأثر

فى تخفيف اضرار الخرافات والتمائم والرقى التى اعتادها عامة الناس وأدعياء الطب والسحر، وصبغوا بها كثيرا من وسائل الوقاية والعلاج والتطبيب طوال عصورهم القديمة.

تسمية الطفل

تشابهت أسماء المواليد فى مصر القديمة مع أسمائهم فى مصر الحديثة فى عدة نواح، ومنها:

تسمية الطفل يوم مولده، مثل «طفل اليوم التاسع»، وذلك على نحو ما نقول الآن خميس، وجمعة ...

وتسميته باسم مناسبة دينية أو وطنية، مثل تسمية «حورمحب» أى الرب حور فى عيد، إذا صادفت ولادة الطفل يوم عيد هذا المعبود، وذلك نحو تسمية أطفالنا رمضان وعيد وبشاى.

وتسمية الطفل «مولاى على رأس جيشه» إذا صادفت الولادة يوم عودة الفرعون على رأس جيشه، وذلك على نحو ما أطلق بعض المعاصرين على بناتهم اسم «وحدة» لولادتهن يوم إعلان الوحدة...

وتسميته بما يعبر عن وضعه بين إخوته ويميزه عنهم، كأن يكون ذكراً وحيداً بين إناث، أو أنثى وحيدة بين ذكور،

أو يكون أول من أنجبه أبواه بعد عقم طويل ، مثل « نبسن » أى سيدهم ، و « إيتسن » أى أميرهم ...

وتسميته باسم أحد والديه أو احد جديه ، أو باسم الفرعون الحاكم أو ولى عهده إذا ولد معه . أو باسم أحـد الفراعنة القدماء المشهورين ...

وتسميته باسم يعتز به مثل « پاماى » أى السبع ، و « وسرحات » اى الجسور ، و « سنبچم إيب » أى مسعد القلب . . .

وتسميته باسم يبعد الحسد وعين الشر عنه ، مثل « چار » أى عقرب ، و « نرخيسو » اى ما أعرفوش ، و « بورخف » أى العبيط ...

وتسميته بصفة جسمية تميزه ، مثل الضرير والأسود والأحمر . . .

ونسبته إلى بلدته أو مكان ولادته مثل المنفى والطيبي ، كما نقول الآن طنطاوى وشبراوى ...

واشتقاق اسمه من ظروف ولادته ، أو من عبارة نطقت أمه بها حين ولادته ، مثل « إيمحوتب » أى جاء فى سلام ، و « إيمسخ » أى جاء بسرعة ، وذلك مثل تسمية بعض الأمهات الأعرابيات لأبنائهن باسم متعب واسم عمران تكنية عن عسر الولادة ،

أو تسمية زوجة النبي يعقوب إبنها بن عونى تكنية عن العناء الذى لاقته فى ولادته، كما ذكرت التوراة .

وعلى نحو ما نقول الآن إن خير الأسماء ماعبّد وحمّد ، مدفوعين بدافع التدين، شاعت بين أسماء المواليد المصريين أسماء عبرت عن روح التدين فى أسرهم أصدق تعبير . وكان من هذه الأسماء مايربط بين المولود ومعبودقومه برباط التبعية مثل حم رع أى عبد رع ، وباكن أمون . أى عبد أمون ؛ أو يربط بينهما برباط القرب والمحبة ، مثل سا أمون أى ابن أمون ، وسن نثر أى أخو الرب . أو رباط الشكر ، مثل نفر إيرت پتاح أى طيب ما فعله پتاح . أو رباط التعبد والإيمان مثل ، نفر حرن پتاح أى عز وجه الإله پتاح ، وأمون وع أى أمون أحد. أو رباط التوكل مثل عنخى مع پتاح أى حياتى فى يد پتاح ... وهلم جرا .

ولم يكن المصريون ينادون أطفالهم بأسمائهم كاملة ، وإنما كانوا يختصرونها ويحورونها ، ويرخمونها وينغمونها ، وينادونهم بأسماء إبى ومى وششى ومحب وسوسو .. إلخ . وكانوا يسمون الولد أحيانا باسمين أو ثلاثة ، اسم عادى واسم تدليل ، أو اسم عادى وكنية ، أو اسم يختاره له أبوه واسم تختاره له أمه .

الأطفال فى الأسرة

أطمأن المجتمع المصرى إلى رعاية الأم لطفلها فى سنيه المبكرة . فكانت تحتضنه طيلة أعوامه الثلاثة الأول ، ترقده بجانبها ، وتحمله على خاصرتها أو كتفها او حول كتفيها ، وإذا خرجت به حملته بالأوضاع نفسها او حملته عنها خادمة على خصرها وشدته إليها بشال عريض . وإذا استطاع الطفل المشى أمسكته امه بيدها حين الخروج،أو تركته إلى خادمة تتبعها به ، أو أجلسته معها فى محفة الخروج . واحتفظت المناظر والتماثيل المصرية الصغيرة باوضاع طريفة تمثل الأم فى دارها تمشط شعور بناتها ، وتضم إليها أولادها .

وشارك الأب المصرى امراته فى الحدب على صغاره ، ولم يكن أبا غليظاً يتباعد عنه أطفاله . فصورته المناظر يضع يده فى يد ابنه ، أو يضع يده على رأس ابنه . وصورت البنت تستند بيديها على كتف أبيها ، أو تمسك كتفيه وهو يلعب النرد مع أمها، وصورت الوالد يتطامن لولده الصغير حتى يصعد على فخذه ويقف عليه مستندا على ذراعه ، وصورته يجلس ولده على حجره ويحيطه



رجل وابنه وأخوه فى وحدة متماسكة

بذراعيه . وصورت أخناتون يجلس بناته على حجره ويرفعهن بين يديه ليقبلهن . وصورت الإخوة الصغار يمسك بعضهم بأيدى بعض ، ويدلل بعضهم بعضا ، ويضم بعضهم بعضا ، ويركب بعضهم



جلسة عائلية سمحة بين أخناتون وزوجته وبناته المدللات

فوق ظهور بعض . وكشفت المناظر بذلك عن روح سمحة طلقة أخذت الأسرة المصرية بها فى معاملة صغارها ، ولم تر في تصويرها داخل المقابر ما يجافى قداسة المقابر ووقارها .

* * *

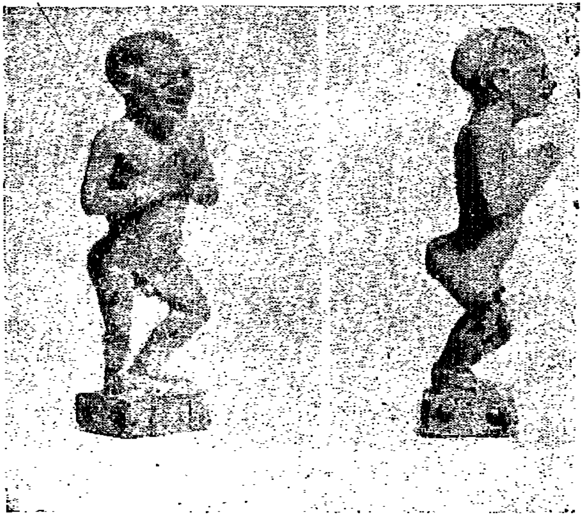
عرف المصريون لكل سن ما يناسبها من لعب وألعاب ، وبقى من لعب أولادهم لعب وعرائس ودمى كثيرة ، صنعها أصحابها من الخشب والعاج والطين والحجر والجلد .



ابنةُ أخناتون تداعب أختها فى براءة وحنان

وأمتع اللعب المصرية هى اللعب المتحركة ، ووجدت واحدة منها فى قبر صبية تدعى حاپى ، صنعت من العاج ، ومثلت فرقة اقزام راقصة يعتلى أفرادها خشبة مسرح صغير ، ويترأسهم « ما يسترو » يضبط الإيقاع لهم بالتصفيق ، ويتخذ كل منهم وضعاً ينم عليه ، فيفتح أحدهم فاه كأنه يغنى ، ويخرج الثانى لسانه ، وينثنى الثالث بجسمه .

وكان يتصل بقواعد الأقزام خيوط متينة توجه الصبية بها أفراد الفرقة حيث شاءت .



قزم من أربعة أقزام يؤلفون فرقة راقصة

ويحتفظ متحف القاهرة ومتحف ليدن بلعبتين صغيرتين ، تمثل كل منهما رجلا يطحن الحب بمرحاة دقيقة فوق سطح منحدر صغير . ويتدلى خيطـان من جذع الرجل ، يشدهما الطفل فيوقفه ، ويرخيهما فيجعله يميل .

وإلى جانب اللعب الإنسانية المتحركة ، صنع هواة اللعب لعبا حيوانية متحركة ، وأطرفها يمثل تمساحاً خشبياً ذا فك

متحرك يحركه الطفل بخيط يتصل به ، وضفدعة ماجية صغيرة ذات فك متحرك ، ولبؤة خشبية ذات فك متحرك تبدو كأنها تسير فى خطو متثاقل وئيد ، وقطة خشبية ذات فك متحرك وعينين مطعمتين . ولعبة متحركة تجمع بين إنسان وحيوان وتمثل رجلا مذعوراً يلاحقه كلب مسعور يستطيع الطفل أن يحركه ويوجهه خلف فريسته .

وشاعت العرائس والدمى بين لعب الأطفال ، ومثلت أشكالا إنسانية ، وأخرى حيوانية ، وثالثة جمعت بين الإنسان والحيوان . وصنعها أصحابها بما يناسب إمكانيات الأسر المختلفة ، فصنعوا العرائس من الخشب والطين والفخار والقيشانى والعاج والحجر .

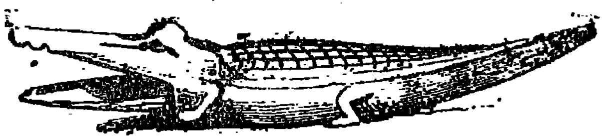
وصوروا على بعض هذه العرائس صور القلائد ، ورسوما هندسية وحيوانية ، وزينوها بخصل من الشعر الطبيعى وشعور مستعارة من الخيوط المجدولة والصوف وحبات الطين المسلوكة فى خيوط على هيئة الخرز . وميزوها بأذرع تتصل بأجسامها بوصلات خشبية صغيرة ، يستطيع الطفل أن يحركها ويتخيل الحياة فيها .

ومن أطرف الدمى دمية تمثل قردة أجلست بنتها أمامها

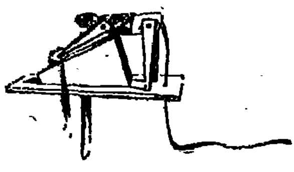
لتمشط لها شعرها على نحو ما تفعل الأم البشرية مع بناتها .

ودمى أخرى تجمع بين الإنسان والحيوان ، ومنها قرد يجر عربة ، وطفل يلاعب جروا ، وفارس أو سائس يمتطي مهرة ذات عرف قصير ويشد لجامها ، وقزم برأس قط ، وأسير برأس بطة ، ونمس يهاجم ثعباناً ، ووحش يفتك بزنجي ، وفيل يعلوه راكبه .

* * *



تمساح خشبي بفم متحرك



لعبة متحركة تمثل رجلا يطحن الحب



نموذجان لعرائس الأطفال

ويشب الطفل عن طوقه ، وينصرف عن العرائس والدمى والألعاب الفردية إلى الألعاب الجماعية ومزاملة الرفاق من سنه . وفيما بين حدائق القصور وسطوح الدور ، والأزقة والأطلال والحقول ، مارس الأطفال المصريون صنوفا عـدة من الألعاب المرحة لا تفترق عن ألعاب أطفال اليوم فى شيء كثير .

ومن الألعاب التى صورتها المناظر المصرية القديمة لعبة لا زال أطفال الريف يلعبونها ويسمونها خزا لاوزة ، ويجلس لها صبيان متقابلان يضع كل منهما قدما فوق الأخرى ، ويتتابع أطفال آخرون فى القفز فوقهما ، ثم يزيد كل منهما قبضة يده فوق قدميه مرة ، وكفه مرة ، وكفيه مرة أخرى ...

ولعبة أخرى كان الصبيان يتبارون فيها على اقتلاع أدوات مدببة يرشقونها أولا فى كتلة خشبية ، ثم يحاولون أن يقذفوها

بعيداً بصرية عصا سريعة . وكانوا يلعبونها بثلاث طرق، يشترك فيها اثنان أو ثلاثة ، ويمسك اللاعب فيها بعصا أو عصوين ، ويضربون فيها أداة مدببة واحدة أو أداتين ..

ولعبة ثالثة يعتمد الصبيان فيها على أعقاب أقدامهم ويدورون عليها فى شبه حلقة ، بحيث يقف اثنان منهم فى محورها ، ويمسك كل منهما بيدى زميلين له يميلان إلى جانبيه .

ورابعة ، ينقسم اللاعبون فيها فريقين ، ويحاول كل منهما أن يجذب الفريق الآخر ناحيته ، مما يشبه لعبة شد الحبل الحالية .

وخامسة يلعبون فيها بعصى معقوفة وطوق ، فيقف اثنان على جانبي طوق ويسلك كل منهما عصاه فى الطوق بحيث تتشابك مع عصا زميله ، ثم يحاول كل منهما أن يخلص عصاه ويجذب الطوق بها قبل زميله .

وسادسة ، تشبه لعبة « عساكر وحرامية » يتظاهر الصبيان فيها بجدية مفتعلة لطيفة ...

وسابعة تشبه لعبة جوز ولا فرد ، يلعبونها بزهر أو حصى ، ويؤدونها بثلاث طرق ، يشترك فيها اثنان أو ثلاثة أو أربعة .

وثامنة يقف فيها ثلاثة أولاد جنباً إلى جنب ، ويصعد رابعهم

ليتنقل فوق أكتافهم معتمداً على يديه وقدميه ، بما يشبه بعض تمارين الجباز الحالية .



أربعة أنواع من ألعاب الصبية فى الدولة القديمة

وتطورت عن هذه الألعاب الساذجة ألعاب أخرى ناضجة ، سجلتها مناظر مصرية يرجع عهدها إلى القرن العشرين قبل الميلاد ، وتضمنت تمريناً للف الجذع الأعلى فى شدة ، وتمرينا آخر يصور حركة سريعة يعتمد غلام فيها على ناصية رأسه ويحفظ توازنه بها فى استقامة كاملة دون ارتكاز على يديه أو كفيه ، وأوضاعاً مختلفة أخرى يشترك الصبية فيها فيما يشبه العرض الرياضى المرح ويكتسبون بها نصيبا من الرشاقة ومرونة الحركة.

ومارس الفتيان عدا هذه الألعاب ألعاباً اخرى يتطلب أداؤها نصيباً من الجهد والتمرين والمهارة ، مثل المصارعة وحمل الأثقال والقفز والتحطيب والعدو والسباحة والتجديف ، وكان

يؤديها الشبيبة عادة هواة ومحترفين، ويحاول الصغار أن يقلدوهم فى بعضها كلما استطاعوا .

وساعد أبناء الطبقتين الثرية والوسطى على ممارسة ألعابهم الجماعية ثلاثة عوامل ، وهى :

رضا أهلهم عن ممارستهم لها مع زملائهم ، وقد بلغ بهم هذا الرضا إلى حد سماحهم بتصويرهم يؤدونها على جدران مقابرهم .

ووجود قواعد للألعاب الرئيسية تجرى بمقتضاها ، لاسيما لعبة المصارعة ،...

وأن دورهم كانت دورا عائلية بمعناها الواسع ، يسكنها رب الأسرة وأولاده المتزوجون وأحفاده ، وتتوفر فيها أحيانا حدائق متسعة وأفنية رحبة .

وذلك على العكس بطبيعة الحال من بيوت العامة التى صورتها المناظر الباقية وطيئة ضيقة متلاصقة ، والتي لم يكن لأطفالها أن يمارسوا ألعابهم الجماعية فى غير الأزقة وقرب المزارع وبين الأطلال القديمة ، كلما تحرروا من العمل والسعى وراء كسب الرزق .

وضع الأنثى

تشهد أسماء الفتيات المصريات أن أغلب أسرهن كانت تتقبل مولد الأنثى بقبول حسن، وترضى بها رضاً يقرب من رضاها بالذكر. ونقول يقرب من رضاها بالذكر بغير أن ننفي أن وضع الولد في المجتمعات القديمة ظلّ أزكى من وضع الفتـــاة، وأن إيثار المولود الذكر نشأ عن اعتبارات عدّة، بعضها منطقي مقبول، وبعضها مصطنع مفتعل. ومن هذه الاعتبارات أن ربّ البنين كان أظهر بين قومه، وأكرم على أهل حيّه من رب البنات؛ وأن أهل العشائر كانوا يتطلعون إلى الفتى ليكون دِرْءًا لعشيرته دون الفتاة؛ وأن رب الأسرة كان أحوج وأميل إلى الولد حتى يشاركه خبرته، أو يخلفه في أهله وثروته إن كان من أصحاب الثراء؛ وأنه كان بوسع الفتى أن يظلّ أكثر حفاظاً على روابط الأسرة من الفتاة، وأكثر قدرة منها على أن يحمِّل اسم أسرته لمن يولد له من الأبنـاء؛ وأن جريرة الفتى إذا زلّ كانت أقرب إلى النسيان والغفران في رأى الأسرة ورأى المجتمع من جريرة الفتاة.

وتفاوت إيثار الذكر بين كل مجتمع قديم وآخر ، وبين كل عصر قديم وآخر ، ولكنه ظل أقرب إلى طابع الاعتدال فى المجتمع المصرى القديم ، على الرغم من أن أصحابه المصريين زادوا فى تقدير الذكر اعتباراً آخر ، فربطوا بين نعيم رب الأسرة فى أخراه وما يكفله له ولده من شعائر الجنازة وطقوس الدين ، فضلا عن إحياء اسمه وتخليد ذكراه !

فى الطفولة والصبا :

ويتّسم بعض أسماء الإناث المصريات بطابع العذوبة والطرافة ، ويسهل التعبير عن أسمائهن الشائعة باللهجة العامية أكثر من الفصحى ، مثل : « نُفرة » أى جميلة ، « بترة » أى رِطعْمة ، « حررة » أى زهرة ، « جحسة » أى غزالة ، « نفرتارى » أى حلوتهم ، « نفرتيتى » أى الحلوة جاّية ، « دوات نفرة » أى صباحيّة مباركة !

ومن أسمائهن ما يكشف عن استبشار الأبوين بمولدهن ، مثل : « ويت نفر » أى بشيرة السعد أو قدم السعد ، و « نحنتى » أى رجائى أو اللى رجيتها ، و « تاحر نحنس » أى الدنيا تدعو لها ، و « سنت إيتس » أى أخت أبيها ، و « حنوت سن » أى ستهم .

ومن أسماء التدليل لهن :

« تاميت » أى قطة ، و« إوبة » أى فتفوتة .

وتخشى الأم الحسد على طفلتها ، فتسميها :

« ِنرختُـوسى » أى ما حـدّش يعرفها ، « جت موتس » أى اللى لقيتها أمها .

وترضى الأم بطفلتها رضا القناعة وتعبر عن ذلك بتسميتها :

« نفر حوتب حتحور » أى فضل الربة حتحور نعمة .

غير أن الأمهات لم يكنّ على سواء فى الرضا بالمواليد الإناث ، وإنما منهن من كانت تتبرم بكثرتهن لديها ، وتصرّ على أن تسمى بعضهن بأسماء غريبة مثل :

« إوسر إخ » أى : إيه دى ؟ أو عاملة كده ليه ؟

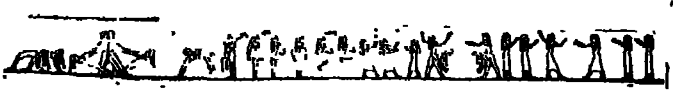
وكانت أسماء البنات تختصر وتحوّر ، وترخّم وتنغّم مثل أسماء البنين ، وينادين أهلهن بمثـل أسماء تپس ، ونبت ، وإينتى ... ، وهلم جرا .

والواقع أن أسماء المواليد الإناث ليست هى المعبرة وحدها عن تقبل المصريين للبنت بالقبول الحسن ، وإنما جرت عادة الأب المصرى إذا صور أولاده بجانبه، أن يذكر أنهم « أبناؤه وأحبّته » ، وعلى نحو ما كان يسجل مع اسم كل ولد

منهم أنه « ولده حبيبه » ، كان يسجل مع كل بنت منهم أنها . « بنته حبيبته » . وهكذا شأن الأم ، كانت تصوّر فتاتها إلى جانبها ، وتؤكد دائما أنها « بنتها حبيبتها » .

وشغفت البنات بالعاب مرحة فى جماعات صغيرة ، يشترك فيها خمس منهن أو ست ، أو ما هو أقل من ذلك أو أكثر . وأغرم الرسامون بتصوير ألعاب بنات الطبقتين الثرية والوسطى فى شرائط ضيقة مستطيلة ، وسجلوا منها ألعاب الكرة الخفيفة ، وألعاباً راقصة مهذبة رشيقة ، وأخرى أكروباتية جريئة .

ولعبت البنات الكرة باساليب مختلفة تشبه أساليبها الحالية إلى حدّ كبير . امتازت من بينها لعبة المحاورة ، ولعبة أخرى تعتلى فيها فتاتان ظهرى زميلتين لهما ، وتتقاذفان كرتين فى سرعة وخفّة ، ومن فشلت منهما فى تلقف إحدى الكرتين نزلت عن ظهر صاحبتها لتصبح مركوبة لها . وطريقة ثالثة تلعب فيها كل فتاة بكرتين أو ثلاث كرات ، تقذفها وتتلقاها بكفيها فى سرعة وتتابع .



شريط متصل يصور أوضاع البنات حين يلعبن بالكرة وحين الرقص التوقيعى وألعاب الأكروبات

وكن يؤدّين الألعاب الراقصة برفع ساق وخفض أخرى، مع التوقيع بالكفين لضبط الحركة، أو تحريك أجزاء الجسم فى حركات رشيقة مهذبة مع التصفيق الرتيب المرح. وكان من الألعاب الأكروباتية الحيّة أن تقلب إحداهن زميلتها رأساً على عقب، وترسل ساقيها على كتفيها أو تنثنى بها إلى الخلف فى انثناءة تقرب من نصف الدائرة.



انثناءة جريئة تشبه حركات الأكروبات أو الباليه الراقص

فى مرحلة الأمومة :

شاركت المصرية زوجها فى تربية أولاده فى بعض سنوات عمرهم ، وتنحت له عنها فى بعض آخر . فشاركته رعايتهم فى مراحل طفولتهم وصباهم ، وأسلمت له زمام أمرهم وأمرها فى مراحل نضجهم .

وكان من صور رعاية الأم لولدها فى صباه أن تحمل طعامه وشرابه إليه فى مدرسته كل ظهيرة . ودأبت إحداهن على ذلك فترة طويلة ، فظل زوجها يحمد لها صنيعها ، حتى نضج ولده ، فوعظه وقال له : « ضاعف الخبز لأمك ، واحملها إن استطعت كما حملتك ، فطالما تحملت عبئك ولم تلقه علىّ . . . وعندما التحقت بالمدرسة وتعلمت الكتابة فيها ، واظبت دونى على الذهاب إليك بالطعام والشراب من دارها كل يوم . فإذا شببتَ وتزوجت واستقررت فى دارك ، ضع نصب عينيك كيف ولدتك أمك وكيف حاولت أن تربيك بكل سبيل » .

(الحكيم آنى ، من القرن السادس عشر ق . م)

وسجل الرواة المصريون فضل الأم على ولدها فى أساطير الدين . فرووا عن إحدى قديساتهم أنها تفرغت لتربية ولدها

وحرصت على تعليمه ، فالحقته بمدرسة أتقن أساليب الكتابة فيها وتعلم منها فنون الحرب والقتال .

فى المجتمع :

ولم يأب المجتمع المصرى أن يعترف للأنثى بأثرها فى شئون التربية ومجريات الحياة العامة ، طالما تمتعت بسعة الأفق وأخذت من الثقافة بنصيب . وعلى الرغم من أن مجالات الثقافة والتعليم كانت من شان الذكور أساساً دون الإناث ، إلا أنه تبين من وثائق فردية متباعدة أن بعض المصريات ساهمن فى نشاط المجتمع بنصيب مقبول ، وتعلمن الكتابة والقراءة وتذوقن الأدب وتراسلن به . وأشارت الوثائق إلى أميرة عجوز من أهل القرن الثالث والعشرين ق . م ، اشتركت فى توجيه القضاء وتصريف شئون الوزارة ، وأميرة عظيمة من أواخر القرن السابع عشر ق . م ، اشتهرت بين قومها بلقب العارفة أو العالمة ، وسيدة من عِلْية القوم فى القرن الثالث عشر ق . م تولت تثقيف فتية من الأجانب باسم البلاط الفرعوني .

وأشارت وثائق أخرى إلى أنثى تولت كتابة رسائل الملك فى عهدها ، وسيدة شاركت زوجها كتاباته وقراءاته ، وإن

اعترفت بأنها كانت دونه فى جودة الخط وإتقان الكتابة .

وألمحت مخطوطات عصر الرعامسة إلى إناث من أواسط الناس كن يتراسلن بعضهن مع بعض ، ويفضن فى ترديد الأمانى وأساليب الوصف . ونزلت إحداهن مدينة منف ذات مرة زائرة ، وراسلت صديقة لها تسكن مدينة طيبة بالصعيد ، فكتبت لها بأسلوب طريف عن روعة منف ، ووصفتها بأنها غادة شقراء ، وكست بهذا الوصف عن أسوار المدينة البيضاء ومبانيها البيض . وكتبت لها عن غرائد منف الناعمات ، وما يؤثرنه من أنواع الزهور وأكاليل النبات ، وصورت لها رخاء المدينة ، وعقبت على رقى الحياة فيها بأن البدوى الأشعث إذا نزلها تحول إلى مدنى مرفه ، يتضمخ بالعطور ويتجمل بالزهور ، ووصفت لها مواكب الجنود حين يشقون طرقات المدينة ، بين التهليل ودقات الطبول .

وأكد المصريون مخايل العلم لبعض رباتهم الإناث ، فتخيل أدباؤهم ربة للكتابة دعوها سشات ، وتناقلوا أنها كانت أول من حسب وخط بالقلم . وقص كهانهم عن المعبودة إيزيس أنها قالت : « أرشدنى أبى إلى سبل المعرفة » .

وجسد قضاتهم العدالة على هيئة معبودة أنثى ، وأطلقوا

عليها اسم ماعت ، وتناقلوا أنها كانت الابنة الوحيدة لربهم الأكبر رب العدالة رع .

وتجرأت بعض المصريات فأسهمن فى مجريات السياسة والحكم بنصيب كبير ، وأشهرهن الملكة خنت كاوس التى انتهت إليها وراثة عرش الأسرة الفرعونية الرابعة ، على فترة من القرن السادس والعشرين ق.م. وملكة يحتمل أن يكون اسمها نيت إقرتى أو شيئاً من هذا القبيل ، ذكرت الروايات أنها كانت من أواخر ملكات الأسرة السادسة ، أى أنها عاشت على فترة من القرن الرابع والعشرين أو الثالث والعشرين ق.م ، وسيدة من القرن الحادى والعشرين ق.م حكمت إقليم أسيوط ـ باعتبارها وصية على ابنها ، والملكة نفروسبك آخر ملكات الأسرة الثانية عشرة فى القرن الثامن عشر ق.م .

ولم تكن تجارب أولئك النسوة فى الحكم والسياسة ناجحة دائماً ، وانتهى تدخل بعضهن فى الحكم إلى انتقال السلطان من أسرهن إلى أسر حاكمة جديدة ، ولكن حسب تدخلهن فى الحكم والسياسة ما يدل عليه من أن الأنثى لم تكن تتردد فى أن تتقدم إلى الرياسة لو دفعتها الظروف إليها ، وأن المجتمع لم يكن يأبى عليها نشاطها لو توقع منها الكفاية .

وتجرأت بعض نساء الدولة الحديثة على تجارب أخرى ونجحن فيها ، وأثرن فى مجريات الأمور فى أسرهن وفى شئون الدولة . وأشهرهن تى شرى جـدة الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، ويذكر لها أنها ساهمت فى تجييش الجيوش فى عهدها . وحفيدتها أحمس نفرتارى ويذكر لها أنها تمتعت بشهرة شعبية واسعة وأن محبة الناس لها ذهبت إلى حد تأليهها بعد وفاتها . وحفيدة حفيدتها حاتشبسوت ويذكر لها أنها آثرت سمات الرجال واتصفت بعزائمهم وسيطرت على العرش اثنتين وعشرين سنة كاملة . ثم تى ويذكر لها أنها خرجت من صفوف أواسط الناس وتحكمت فى قلب زوجها أمنحوتب الثالث وعقله ، وكاتبها ملوك الشرق وأمراؤه وتملقوها . ونفرتيتى ويذكر لها أنها شاركت زوجها أخناتون حياة التفلسف ، وكانت شديدة التعصب لمذهبه فى فلسفة الدين وقضايا التأليه .

وشاركت نساء العائلات الثرية الوسطى فيما يناسبهن من مجالات الحياة العامة ، وتولت بعضهن مناصب تلائمهن فى قصور الفراعنة ، وتوفر لبعضهن نصيب من الإشراف على بعض ما يتبع أزواجهن من الأعمال . وشاركن فى مجالات الدين بنصيب كبير ، وكن يتطوعن فيما يلائمهن من كهانة المعابد ، ويسهمن فى المحافل

الدينية والأعيـاد ، وينطوين فى سلك المنشدات عن هواية واحتراف . وتوفر لبعض فرق المنشدات صيت واسع ، لاسيما فرق منشدات منف وطيبـة ومنشدات قصور الفراعنة . وتـكفلت معاهد صغيرة بتعليم الفتيات الرقص التوقيعى والرقص الدينى ، وكان يشرف عليها أحيانا رجال متخصصون .

وهكذا لم يأب المصريون نشاط الأنثى فى حدود أسرتها ،



معهد صغير لتعليم الرقص الرمزى
(أو الرقص التوقيعى)

ولم يأبوا الاستعانة بها فيما يناسبها من مجالات الحياة العامة وأمور العبادة والمعابد ، واطمأنوا إليها فى تربية صغارها ، ولم يأبوا عليها تدليلها لهم فى طفولتهم ، ورعايتها لهم فى بداية صباهم ، ولكنهم تخوفوا عواقب لينها وتدليلها لهم فى مراحل نضجهم ، وأصروا على أن يتولى أبوهم أمرهم دونها .

وتخوف حكيم مصرى مغبة اللين بين زوجته وولدها فقال له : « طوبى لمن كان جاداً إزاء أمه ، فهو جدير بأن يتبعه الناس كافة » وعنى الحكيم بذلك أن من يعتاد الجدية فى داره يسهل عليه أن يعتاد الرياسة خارجه ، وأن حياة اللين والتدليل تفسد على الشاب شخصيته .

الأب فى الأسرة

اطمأن المصريون إلى تجارب الأب فى مجتمعه ورجولته فى داره، وحكموا على أثره فى أسرته من خلال سلوك ولده، وربطوا بينه وبينه بقولهم: « نهج الولد نهج والده » على نحو ما نقول الآن: « الولد سرّ أبيه » وكانوا إذا رضوا عن فتى قالوا: «أنجبته روح أبيه» أو قالوا: « ما أصلح تهذيب أبيه» .

وقدّر الأب المصرى مسئوليته ، وكان إذا نجح فيها وأحب ان يترحم الناس عليه بعد وفاته، قال: « أيها الناس ادعوا لفلان الذى كون أسرته وربى أولاده، وفعل الحسنى على وجه الأرض» . ورتب المجتمع على الوالد واجبات إزاء أولاده صورها الحكيم بتاحوتب فقال: إن عليه أن يلتمس كل شأن فاضل لولده المطيع، وأن ترى عيناه وتسمع أذناه ما ينفع ولده، وأن يفيده بخبرته، ويسعى إلى رفع مستواه كلما استطاع إلى ذلك من سبيل .

وفى مقابل مسئوليات الأب، افترض المجتمع له حقوقا واسعة على ولده ، أولها الطاعة والاحترام ، ولم يأب عليه أن يقوّم

سلوك ولده ويأخذه بالشدة إذا ضل ولم يعمل بنصائحه ، سواء بالضرب أو التأنيب أوالتبرأ منه جملة . وصور بتاح حوتب سلطة التقويم هذه فقال :

... « إذا ضل ولدك وخالف نهجك ولم ينفذ تعاليمك ، وساءت تصرفاته فى دارك ، وتحدى كل ماتقوله ، وتدنس فمه بقول قبيح ... ، فانبذه ، فإنه ليس ولدك ، ولم يولدلك ... ، انبذه ، واعتبره شخصا أدانه الأرباب ولعن الرب خطاياه ... »

واستنكر حكيم آخر أمر الأب إذا تهاون فى إظهار حزمه عند الضرورة ، وأصر على أن الوالد الرحيم شىء ، والوالد اللين شىء آخر ، وأنه ما من ابن هلك من تأديب أبيه ، وأن العصا والحياء يقيان الابن شر الفساد .

وصور مجريات الأمور فى الأسر المصرية المتوسطة بضع رسائل من أوائل القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، كتبها والد يسمى حقانخت إلى ولده الأكبر مرسو . ويتضح من هذه الرسائل مدى الإشراف الذى افترضه الآباء لأنفسهم على أولادهم ولو بلغوا سن العمل ، ومدى الفوارق الطبيعية فى معاملة الوالد

لأبنائه وفق أعمارهم ، ومدى الحرص من رب الأسرة على جواريه ومقتنياته .

ترك حقانخت أولاده الخمسة فى طيبة ورحل إلى منف ليباشر أعماله فيها لفترات طال بعضها عن العام . وعهد إلى ولده الأكبر مرسو بأرضه ومخازن غلاله ومدخرات داره ، كما عهد إلى ولد آخر يصغره بخمس وثلاثين رأساً من الماشية شارك جاره فيها .

وكتب حقا نخت إلى ولده الأكبر بضع رسائل من منف ، تظهر فيها شدته عليه وتحميله إياه مسئوليات الأسرة كاملة . فكتب إليه قائلا : إذا طغى الفيضان على أرضى فالويل لرجالى ولك ، ولن ألقى المسئولية إلا عليك . وقال : عليك ان تبذل الجهد فى أرضى واجتهد بأقصى ما تستطيع . اعزق الأرض وتدخل فى كل عمل . وكان لا يفتأ يكرر عليه قوله : إنك سعيد إذ أعولك . ولماذا أعولك ؟ وإذا اجتهدت دعا الناس لك . وإذا لزمت الهدوء فإنه نعم العمل .

وتخلى حقانخت عن شدته بالنسبة إلى ولده الأصغر سنفرو ، فكتب عنه إلى أخيه يقول : إذا لم يكن لسنفرو ما يكفيه معك فى الدار فلا تتوان فى إخبارى ، فقد بلغنى أنه غير راض . اعتن به كثيرا واكفل له مؤونته ، وأبلغه سلامى ألف مرة ، بل

ألف ألف مرة ، اعتن به وأرسله إلى بعد أن تحرث الأرض مباشرة.

ثم كتب عنه ثانية ، فقال : إذا كان سنفرو يريد أن يعتنى بالماشية فدعه يفعل ، فهو لا يحب أن يجرى معك هنا وهناك فى حرث الأرض ، كما أنه لا يريد أن يأتى إلىّ هنا ، وعليك أن تمتعه بكل ما يحب .

وكان للرجل ولد صغير يدعى « ساحتحور » اشترك فى مشاكسة جارية أبيه مع خادمة تدعى سنن ، فلم يزد حقانخت على أن صب غضبه على ولده الأكبر والخادمة معا ، وتغاضى عن شقاوة الولد الصغير ، فقال لمرسو : اطرد الخادمة سنن من دارى فى الحال ولكن احرص على أن يتردد ساحتحور عليك يوميا ، وإذا بقيت سنن فى الدار يوما واحدا وأساءت إلى جاريتى فأنت الملوم . وإلا فما الذى تستطيع جاريتي أن تفعله معكم وأنتم خمسة اولاد ؟ سلم لى على أمى إيبي ألف مرة بل ألف ألف مرة !

وعاود حقانخت الحديث عن جاريته فى خطاب آخر ، فقال لولده : لاحظ أنها جاريتى ، وأنه ينبغى أن تعامل جارية الإنسان بالحسنى ... ، وإلا فكيف أعيش معكم فى دار واحدة إن لم تحترموا جارية من أجل خاطرى ؟

ولم تختلف سلطة الأب فى الأسر الثرية عن سلطته فى الأسر

المتوسطة ، إلا باختلاف الوسط واختلاف الظروف . فقد تعمد تحوتمس الثالث أن ينشىء ولده البكر أمنحوتب تنشئة جادة صارمة ، وارتضى له ولم يزل صبيا صغيرا أن يفارق قصره فى طيبة ليقيم مع مربيه فى قصر الحكم بمدينة جرجا . ولما اشتد عوده أرسله إلى منف وألحقه بمعسكرها الكبير ليشاطر جنوده معيشتهم ويتم تربيته العسكرية بينهم . وعهد إليه بتربية خيوله الحربية وتدريبها وعلفها . ولم يعلن رضاه عنه إلا بعد أن تيقن أنه « استطاع أن يولى ظهره لشهوات الجسد وابتغى لنفسه حياة الجدية على الرغم من صغر سنه » ، على حد قوله .

على أنه أيا ما كان من سلطة الأب المصرى على أولاده ، فهى جد معقولة إذا قورنت بأمثالها فى مجتمعات قديمة أخرى ، فقد أباح الإسبرطيون الإغريق للأب حق الإحياء والإماتة على ولده فى طفولته ، وأباح الرومان للأب حق رهن ولده وبيعه .

أدب الأبناء

رتّبه الحكماء المصريون تعاليمهم بما يتفق ومطالب مجتمعهم والروح العامة التى سرت بين طبقاته ، فوافقوا الآباء على ما فرضوه لأنفسهم من حقوق الطاعة والإشراف على أبنائهم وأكدوها لهم، وقالوا معهم بأنه ما من مولود يستطيع أن يبلغ الحكمة من تلقاء نفسه .

ولكنهم آثروا التوسط فى تعاليمهم ، واستحبوا من الأب أن يشفعّ أمره ونهيه بوسائل الإقناع ، ونبهوا الإبن إلى ان فضيلته تعود بالنفع عليه وحده ، وأن خيرما يمكن أن يرثه عن أبيه هو توجيهه إلى تحرّى العدالة ودعوه إلى أن يجدّ نحو الكمال من أجل نفسه وأجل الناس ، بشروط ثلاثة ، وهى : أن يرضى بما قدّر له ، وأن يتجاوب مع الأوضاع القدسية التى ارتضاها الأرباب والفراعنة لمجتمعه ، وأن يراعى التوسط فى معاملة رئيسه ومرءوسه ، ومعاملة نفسه ومطالب بدنه ، واختيار مناسبات صمته ومناسبات كلامه .

وكان من الطبيعى أن يتفاوت رضا الأبناء بما دعاهم الآباء والحكماء إليه ، فيكون منهم البار والعاق ، والصالح والطالح ،

والمطيع والعاصى ، والواعى والغافل . فشاعت بين أخيارهم عادة احترام الإبن لأبيه ، وقيامه عند التحدث إليه ، ومخاطبته على استحياء ، وتوقير كبار السن عامة . وصورت هذه العادات قصص مصرية قديمة كما صورها الفنانون ورددها الأبناء فيما كانوا يكتبونه عن سير حياتهم .

ومن أقدم القصص التى صورت آداب البنوة ، قصة تعرف اصطلاحا باسم قصة خوفو والسحرة . وهى قصة شاء قصاصها أن يصور خوفو صاحب الهرم الأكبر أباً ودوداً كأخيار الآباء ، يجمع أولاده حوله ويسامرهم ويسمع من كل واحد منهم ما وسعه علمه عن أخبار الماضى وأهل المعجزات فيه ، ولكنه ، أى القصاص ، تعمد فى الوقت نفسه أن يسجل أدب الأمراء ، فقدم لحديث كل امير منهم مع أبيه بقوله : وعندئذ نهض الأمير (فلان) واقفا ليتحدث ، ثم قال لأبيه إنى أقص على جلالتك كذا وكذا ...

وصور الرسامون والمثالون المصريون عددا من الأوضاع التى ارتضاها الآباء من أبنائهم فى بعض المناسبات ، فالولد غالبا ما يصورونه واقفا مع أبويه الجالسين ، والبنت تظهر معهما واقفة أو جاثية ، وقلما ظهرت جالسة . والولد والبنت يفترشان

الحصير أو يجلسان على مقاعد منخفضة حين الطعام وحين يجلس أبواها على المقاعد المرتفعة . ولو أنه لم يكن من الحتم بطبيعة الحال أن يتقيد الأولاد والبنات بهذه الأوضاع دائماً ، وإنما هي اوضاع مثالية كانت تستحب في المناسبات فقط .

وحرص الأبناء الكبار على أن يسجلوا اعترافهم بحقوق الأبوة وواجبات البنوة ، فكتب أحدهم في سيرة حياته يقول : « كنت عكاز الشيخوخة في يد أبي ما بقي على وجه الأرض ، وكنت أروح وأغدو وفق أمره ، ولم أخالف أبدا ما قرره فمه ، ولم أتعود أن أتطلع إليه بنظرات كثيرة ، وكنت أطأطيء بوجهي حين يحدثني » !

ولا يزال صدى بعض هذه الآداب باقيا في مجتمعنا الريفي إلى اليوم ، وتمثله العادات التي تستحسن من الصغار عدم حضور مجالس الكبار ، وعدم الجلوس وهم وقوف ، وعدم إبداء الرأي أمامهم ، وعدم معارضتهم فيما يرتأون .

غير أن قصر سلوك النشء المصري القديم على هذه النواحي الطيبة من السلوك ، لا يصور الواقع كله ، فليس من شك في أن الميل الطبيعي من الشبان إلى التحرر من كل سلطة تفرض عليهم ، كان له أثره في تكييف سلوك بعضهم إزاء سلطة الآباء وتعاليم



مأدبة لأسرة أخناتون ، تجلس بناتها الصغار على مقاعد منخفضة ويعتلي الكبار مقاعدهم المرتفعة

الحكماء . ولم تخل الآداب المصرية من الاعتراف بهذه الحقيقة ، فقال الحكيم بتاح حوتب لولده فى حديثه عن الآباء والأبناء :
« ... وكم من ولدٍ فى عناء ، وأم ولود تجد غيرها أهدأ بالاً منها » !

وصورت مصادر مصرية أخرى انصراف بعض الفتيان إلى اللهو ومعاقرة الخمر ، وإيثار مجالس الغناء والنساء . ووصفت بعضهم بأنه قد يسهل ترويض الأسود وكبح جماح الخيول وتدريب العجماوات حتى ترقص وتطيع ، بينما لا يسهل ترويضهم هم أو كبح جماحهم أو تعويدهم على الطاعة . ووصفت بعضاً آخر بأنهم يتسكعون من حى إلى حى تسبقهم رائحة الخمر ، فإذا وصل أحدهم إلى حارته تجمع البنات حوله وجلس يضرب بيديه على بطنه كأنه يضرب على الطبل !

تقاليد الأسرة

أسلافنا للقارئ من تقاليد الحياة العائلية فى مصر القديمة ثلاث سماتٍ وهى : سمة التوسط فى تصوير حقوق الرجل والمرأة . وسمة التوسط بين حدود الجدية والحشمة وحدود المرح والاستمتاع . وسمة الاستقرار وماترتب عليها من رغبة أفراد الأسرة فى دوام ترابطهم فى الدنيا والآخرة ، وهو ترابط لابد أنهم اختلفوا فى تصوره وتصوير حدوده ، ولكن الفنانين حرصوا دائماً على تأكيده فى لوحاتهم التصويرية الكبيرة والصغيرة ، فحرصوا على أن يصوروا الأبوين متجاورين فى أغلب الأحوال ، وعلى أن يجمعوا أولادهما حولهما ، أو يصوروهم يفترشون الحصير تحت أقدامهما . وإذا خرج رب الأسرة إلى صيد الأسماك والطيور بقاربه الخفيف ، لايصورونه يستأثر بصيده وحده ، وإنما يصورون ولده معه ليحمل له صيده أو يساعده عليه ، وتكون زوجته من خلفه تسنده بيديها أو تتساند عليه ، وتركع ابنته لدى ساقيه تقطف زهور الماء لنفسها وأسرتها ، أو تمسك سوق البردى واللوتس لتحفظ توازن

القوارب حين يندفع أبوها إلى الصيد بحربته أو عصاه .



ثرى تشاركه أسرته لهوه بصيد السمك والطيور
وقد نسى الفنان أن يصور حربة الصيد بين يديه

والحياة العائلية فيما ارتضاه المجتمع المصرى من شئونها ثلاث سمات أخرى ، وهى ميلها إلى التدين ، وعدالة التوريث

بين الأنبـاء ، وروح السماحة فى معـاملة الخدم والأتباع .

وينم عن غلبة التدين الأسرى فى مصر القديمة قرائن عدة ، منها ما أسلفناه من شيوع الطابع الدينى فى أسماء المواليد ، ورغبة الوالدين فى التعبير باسماء أطفالهم عن ارتباطهم بالآلهة ، والتوكل عليها ، وابتغاء حمايتها ، والإقرار لها بالفضل والنعم . وينم عنها كذلك أنه مامن عائلة من العائلات المصرية ذكرت على الآثار أو صورت ، إلا انتسب فرد منها أو أكثر من فرد إلى خدمة المعابد والأرباب. وقد يكون فى هذا الانتساب نوع من الادعاء فى بعض الأحوال ، ولكنه ادعاء لايخلو فى الوقت نفسه من دلالة على أن الأسرة المصرية كانت ترى مثلها الأعلى فى التدين ، وأن المجتمع كان يتطلب منها ضرورة الإيمان بالآلهة وتقديس معابدهم .

ولم يحرص رجال الأسرة وحدهم على التدين وخدمة الأرباب ، وإنما كان للنساء كذلك نصيبهن من التقى والتدين . وكانت بعض بيوت المتدينين تتضمن محاريب للعبادة ، وصوراً للأرباب ، وكان ذلك يوحى إلى أفراد أسرهم بقربهم من ربهم ويوجه أنظارهم إلى ما يرضيه أو يغضبه .

وصورت روح التدين فى العائلات البسيطة ، لوحة لرجل رسام يسمى نبي أمون ، من أهل القرن الحـادى عشر ق.م ،

مرض ولده الأكبر مرضا شديداً وظن الرجل أن المرض أصاب ولده لذنب أتاه ، فاتجه بدعائه إلى ربه يقول له « لئن شفيت لى ولدى لأقيمن تذكاراً باسمك ، وأسجل لك عليه نشيداً مكتوبا» فلما أجاب الرب دعاءه ، أوفى بعهده ، وأقام نصبا كبيراً باسمه وأسماء أولاده الأربعة ، وصورهم عليه يصلون معه ، ويتوجهون بالثناء على من حبا أسرتهم بفضله . وسبح هو ربه قائلا : « أنت رب السموت ، أنت من تجيب دعوة المسكين . دعوتك وأنا مهموم ، فلبيت الدعاء وأنقذتنى » .

ودعا نبي أمون الناس إلى تقوى ربهم ، وأوصاهم أن يقصوا قصته لكل ابن وابنة ، وللصغار والكبار . وروى لهم أنه لما دعا ربه ، وجده يلبي نداءه كأنه ريح الشمال يسبقه نسيم لطيف عليل . . ، وعقب على رضا ربه بقوله : « وهكذا إن مال العبد إلى الشر ، فالرب ميال إلى الصفح ،وما حدث أن قضى رب طيبة يومه غضبان ، فغضبه يتلاشى بعد لحظة قصيرة » .

ولم يؤد تدين الأسرة المصرية إلى إلزامها التزمت المكروه، وإنما كان ديناً سمحاً لا يرى اهله مانعاً من أن يحيوا أعياده بالرقص والموسيقى والأناشيد .

* * *

لم تتضمن وثائق العصور المصرية المبكرة قواعد صريحة لتقسيم الإرث بين البنين والبنات ، ولكن جرى العرف فى ذلك مجرى القانون ، واستمر كل من الأبوين يوصى لأولاده بما يراه نافعاً لهم من أملاكه الثابتة دون حرمان الفتاة أو غبنها . فإذا كان للزوج أولاد من زوجته الأولى المتوفاة أو المطلقة ، كان عليه بحكم العرف أن يحتفظ لهم بحقهم فى ميراثه إن كانوا صغاراً ، أو يعهد إليهم به إن بلغوا سن النضج .

فإذا مات أحد الوالدين دون وصية ، واختصم الأبناء ، حرص الحكام والقضاة على ألا يحرموا ابناً منهم من نصيبه المقبول . وكثيراً ما ردد من ولوا القضاء والحكم قولهم فى سير حياتهم : « إنى لم أحكم بين أخين بحيث أحرم ابناً من ممتلكات أبيه » .

وعهدت الأسرة المصرية بأوقافها إلى الابن الأكبر فيها ، فى بعض عصورها ، ثم جعلت له حق الإشراف على ميراثها كله فى عصور أخرى . ولكنها فى الحالتين لم تسمح له بأن يتصرف فى الميراث والأوقاف لحسابه الخاص ولا أن يحتجز الأوقاف لأبنائه دون غيرهم ، واشترطت عليه أن يظل إشرافه عليها فيما يفيد أفراد الأسرة أحياء وأمواتا .

وترتب على هذه الأوضاع أن حرص بعض الأبناء الكبار على أن يرددوا في سير حياتهم التي نقشوها على جدران مقابرهم، قولهم: « أعددت ضريحي وأوقافه من ثروتي الخاصة، وليس من ممتلكات أبي »، وعنوا بذلك أنهم كونوا ثروتهم وممتلكاتهم بأنفسهم، ولم يستغلوا حقوق إخوتهم في ميراث أبويهم، في مبانيهم الخاصة.

وعندما وفد المؤرخ ديودور الصقلي على مصر، أعجبته حكمة مواريثها، فقال عنها: « التزم الآباء المصريون بتربية أبنائهم جميعا .. ، ولم يتعودوا على أن يعتبروا أي ولد ابنا غير شرعي، ولو كان ابن جارية مشتراة » .

ولا يبعد أن آباء وأمهات وإخوة شذوا عن تقاليد المواريث السابقة، بما لا نعرفه، ولكن حسبنا أن المجتمع كان يرتضي العدالة فيها على وجه العموم، وأن العادة الغالبة في الاحتفاظ للأولاد والبنات بحقوقهم في الإرث، كانت تساعد على حفظ شخصياتهم وفردياتهم واضحة داخل الأسرة وخارجها .

* * *

استحبت الأسر المصرية الثرية السماحة مع أتباعها وخدمها، وكان لذلك أثره في تهذيب حواشي ابنائها ورقة طباعهم . فكان

من ملاك الأراضى من يسمح لرقيقه بالاشتغال عند غيره لمدد معينة، ثم يسمح لهم بأن يتسلموا أجورهم منه بانفسهم، أو يشترط لهم على المستأجر ألا يرغمهم على العمل فى يوم يشتد حره. ولم يأب بعض المصريين أن يعلن حق الأجراء وأوليائهم الأقربين فى الاحتجاج على تكليفهم بغير ما استؤجروا له.

ولسنا نشك مرة أخرى فى أن أسراً مصرية ثرية تجاهلت هذه السماحة وانقلبت منها إلى ضدها، ولكن حسبنا أن تقاليد المجتمع المصرى لم تتمسك بالفواصل الحادة التى فرضتها المجتمعات القديمة الأخرى بين مواطنيها وبين أرقائها، ولم تذهب مذهب الأغريق والرومان فى اعتبار الرقيق متاعاً يحل لصاحبه تدميره وإهلاكه.

وليس أدل على حسن الأثر الذى تركته سماحة المصريين مع أتباعهم فى نفوس أبنائهم أحيانا، من أن نجد شابا مصريا يراسل أباه فيقول له: « أرجو أن تكتب إلى عن حالك وأحوال خدمك وكل ما هم فيه، لأن قلبي مشتاق إليهم كثيراً جداً ».

وتعدى رفق الأوساط المثقفة بالأتباع إلى الرفق بالحيوانات الأليفة، فخصص أطباؤهم خطوطا طبياً لعلاج عيون وأسنان العجول والكلاب. وبلغ من تاثير هذا الرفق على أخلاق

الأولاد ، أن روت قصة مصرية عن غلام فيها أن العرافين أنذروه بأنه سوف يموت مقتولا ، وأن مقتله قد يتأتى بسبب كلبه ، إن لم يكن من جراء تمساح أو ثعبان ، فلما أرادت خطيبته أن تقتل الكلب إبعاداً لشره عنه ، أبى واستمسك به، وترك أمره وأمر كلبه للأقدار ، وقال : « بحق الإله رع لن أدع أحداً يقتل كلبي الذى ربيته منذ أن كان جروا » .

وكان من الطبيعي أن يختلف حظ الأسر الفقيرة عن حظ الأسر الواعية فيما ترتب على الأوضاع والخصائص السابقة فى تربية الأبناء وتكييف طباعهم. فى الأسر الفقيرة لم يكن الأبناء يتأثرون بمعاملة السادة لأبويهم . وفيها لم يكن الفقر يحرم الولدان من بعض متع الحياة وحدها ، وإنما كان يحرمهم من بعض الصحة أحيانا . وفيها كان الولدان يشاركون آباءهم فيما يضطربون فيه من أمور الدنيا منذ سنيهم المبكرة ، ويكدحون معهم فى سبيل الكفاف ، ويخرجون معهم إلى الفلاحة والصناعة بنين وبنات . فأولاد الريف وبناته إذا فارقوا طفولتهم المبكرة وفارقوا مرحها البرىء المحدود ، وودعوا اللهو بعرائس الطمى والقش والبوص واللعب فى الأزقة ، كانوا ينصرفون إلى ما يناسبهم من شئون الفلاحة ، كاقتلاع الحشائش ، وبذر الحب

وجمع سنابل الغلال ، والتقاط ما يتساقط منها حين الحصاد ، وذود الطيور عن كروم العنب بالعصى الصغيرة والمقاليع ، سواء فى أرض آبائهم أم فى حقول أخرى يؤجرون على العمل فيها بأجر يسير . وأولاد المدن كانوا يتجهون إلى ما يشبه هذا الاتجاه ، فيعمل الصبيان فى صناعة آبائهم صناعاً كانوا أو صيادين أو بائعين ، وتضطر بعض البنات أحيانا إلى العمل فى مصانع الغزل والنسيج والغسيل تحت إشراف النسوة أو تحت إشراف الرجال .

ومن العجيب أنه على الرغم مما أحاط بأفراد الأسر المصرية الفقيرة من عنت الدنيا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يسخرون أكثر من غيرهم فى مشروعات الدولة وخدمة الحكام ، إلا أن تكوينهم الوجدانى لم يختلف كثيرا عن التكوين الوجدانى المعتدل لمواطنيهم أهل الطبقتين العليا والوسطى . فالنفسية البسيطة الراضية والروح الصبورة المتفائلة ، والتدين الفطرى الساذج ، والطباع الفكهة المرحة ، كل أولئك كان يتمثل فى جماهير الفلاحين والرعاة والعمال على نحو ما تمثل فى كثير ممن كانوا يسودونهم ويستأجرونهم من أهل الطبقات الأخرى .

وتوحى أغانى الكادحين على الأرض وهم يحرثونها ويبذرون الحب فيها وينقلون غلالها إلى الصوامع ويستقبلون تباشير الفيضان عليها ، كما توحى أهازيج الرعاة وحاملى المحفات ، بان الله شاء أن يعوضهم بروحهم الصبورة المرحة عن بعض ما حرموه من متاع الدنيا وضرورياتها !

يعمل المزارعون فى حرث الأرض منذ صباحهم الباكر ، فيهونون على أنفسهم مشقة العمل ، ويرددون :

اليوم زين والأبدان ريّانة
والثيران تجرّ والسما على هوانا !

وينقل آخرون الغلال ، ويطول يومهم ، فيعلنون شكايتهم فى موال يخففون به كربهم ، ويقولون :

نقضى النهار تنقل القمح والغلة
والشون فاضت والأكوام بتدلّى
ووسقنا المراكب وفاضت الغلة من برّه
والريس يسوق وقلوبنا معادن ما تتبرى

ويخرج أربعة من الخدم يحملون سيدهم فى محفة فيخدعون أنفسهم عن ثقل ما حمّلوا به ، أو يتهكمون على ثقل ما حملوّا به ،

فيقولون : « ما أحلاها وهىّ مليانة عنها وهى فاضية » !

ويشقى الأتباع فى إعداد حاجيات سيدهم ووسائل متعته ، فيخدعون أنفسهم عن حرمانهم من أمثالها ، بادعاء القربى بينهم و بين سيدهم ، ويتحدثون عنه باسم تدليل ، كأنما ارتفعت الكلفة بينه و بينهم ، فيتحدث أتباع الوزير نباح حوتب عنه باسم إپى ، و يتحدث أتباع آخرون عن سيدهم الوزير كايجمنى باسم ممى !

ويمكن أن ترد الروح الراضية القانعة المرحة لأولئك الكادحين إلى ثلاثة عوامل ، وهى : أنهم تطبعوا تلقائيا وعن غير وعى ، بطابع بيئتهم الفسيحة المنبسطة الهادئة السمحة ، التى برئت من مظاهر الصخب العنيف ومن التقلب . وأنه شاع فى مجتمعهم وازع دينى أصيل دفع ذوى القلوب الرحيمة من الرؤساء إلى التخفيف عن مرءوسيهم وأجرائهم والرأفة بهم ، طمعا فى رضا الأرباب وحبا فى جزاء الآخرة . وعبر عن هذا الوازع الدينى رجل مصرى أشرف على ضيعة أخيه عشرين عاما ، فكتب يقول : « لم أوذ شخصا فيها لأنه وقع تحت طائلتى ، ولم استعبد واحدا من أهلها ، وكنت إذا جادلت أحدهم أرضيته ، ولم يحدث إطلاقا أن نمت غاضبا على فرد منهم » .

وانه شاع إلى جانب هذا الوارع الدينى وارع عرفى كريم استحبه بعض الحكماء والرؤساء وأرادوا أن يخففوا به مرارة الحقد والحرمان فى نفوس الفقراء، ويتجنبوا به مايتركه الحقد عادة من التواء فى الطبع والوجدان . وأراد بتاح حوتب أن يصور لولده حكمة هذا الوازع، فى صورة عملية مقنعة، فقال له: « ارض العوام فإن النعم لا تكمل من دونهم » .

ولا يدل ذلك بطبيعة الحال على مثالية المصريين المطلقة فى معاملة الأجراء و لأتباع ، وإنما هى مثالية كانت مستحبة فحسب، قد يتعمدها بعض السراة ، ويتغافل عنها بعض آخر ، وقد يتظاهر بها بعض ثالث دون اقتناع .

وسرت بين أخيار الكادحين وبعضهم روح من التراحم والتعاطف ، يسرت عليهم مشقات الحياة وأضفت عليهم حظا من هدوء النفس وسلامة الوجدان . وعبرت النصوص المصرية عن هذه الروح بألفاظ اعتاد أخيار الأتباع والصناع أن ينادوا بعضهم بعضاً بها ، فالجزار الطيب إذا طلب مساعدة زميله فى شد ساق الذبيحة ، قال له « خد عليك يا خُويا » ، والنساج الطيب إذا نادى زميلته قال لها « أسرعى يا أختى » ، وإذا تخلى أحدهم عن ألفاظ الأخوة نادى زميله بقوله « ياللّى معايا » . وإذا

فرغ أحدهم من عمله شجعه زميله الودود بقوله « شيء بديع للغاية » وإذا وعده أن يشاركه العمل قال له « سأعمل ما يرضيك » .

ولا يبعد أن حياة أولئك الكادحين فى أسرهم ومع أولادهم كانت على ذات الحال من البساطة والتعاطف فى عالب أمرها ، يقل فيها الكبت والتعقيد، وإن لم تخل من التقشف والحرمان .

تقاليد الزواج

تراوح اختلاط الفتى والفتاة قبل الزواج فى مصر القديمة بين اتجاهين : اتجــاه وقور متحفظ أصر الآباء على تنفيــذه فى البيوت ، وزكاه المعلمون فى المدارس ، ونشره الحكماء فى المجتمع ، وكانوا يحذرون فتيانهم فيه من زيارة البيوت فى غيبة رجالها ، أو دخولها بغير استئذان ، وينكرون على زائر الدار ، رئيساً كان لرب الدار أو شقيقاً أو صديقاً ، أن يخالط فتيات الدار . وكان اتجاهاً استجاب له معظم الفتيان والفتيات بوحى الطاعة الغالبة وحب الاحتشام .

واتجاه آخر أحلّه أهل العشق والهيام وأشقياء الفتيان والفتيات ، وصورته عنهم قصائد الغزل التى كانوا يتداولونها ويتغنون بها .

ويصر أحدهم فى هذه القصائد أنه لو فصــل بينه وبين معشوقته بحر تخطاه ، أو تمساح لاقاه . ويستصرخ اخر عدالة الأرباب وعون الربات ، عساهم يهيئوا له لقاء محبوبته ، دون أن

يتوهم فى لقائه بها ما يغضب الرب أو يجافى الدين . ويود ثالث لو تمارض وزارته معشوقته فيمن يزورونه من الأقارب والخلان . ويتمنى رابع لو أصبح باب فتاته من قش جاف ومزلاجه من نبات فيدفعه إليها غير وجل ولا هيّاب . وتتقطع الأسباب بخامس فيتمنى أن يُسحر ويصبح وصيفة لمعشوقته حتى يحل له رؤياها ، أو يصبح تابعاً يسمع رغباتها ونواهيها ، أو يُسحر خاتماً يعلق بإصبعها ولا يتركه . ويكفر سادس فيتعوذ برقية يقول لربه فيها : « لئن لم تجعلها تتبعنى فلسوف أشعل النار فى بوزيريس وأحرق أوزيريس » . وكان أوزيريس هذا الذى ود العاشق إحراقه ، أكرم رب عبده المصريون ، وكانت بوزيريس بلده الأصيلة ومثوى ضريحه .

وتتمنى بعض الفتيات ما يتمناه أشقياء الفتيان ، ويضقن برقابة الأم تارة ، ويستعذبنها لتشويق ابن الجيران تارة سواها ، ويرضين أن يكتوى المحبّ بنار الجوى تارة ، ويبحن بما يكتوين به من نار العناد تارة سواها . ويذهب العناد بإحداهن فتعلن لأهلها أنها لن تتخلى عن حبّها ولو آذوها بالعصىّ وجريد النخيل والشوم ، أو ساقوها شمالا إلى فلسطين وشردوها جنوباً إلى السودان . وتتجرأ أخرى فتخطر رائحة غادية أمام

أليفها عساه يعلق بها ويهجر أمه وأشقاءه وشقيقاته من أجلها . وتتعلل ثالثة بالخروج لصيد الطيور عسى فتاها أن يقع فى حبائلها عوضاً عن الطيور ، أو تتعلل بالسباحة فى غدير قريب فيراها بغلائلها ، ويتحرر من الحذر وخشية التقاليد !

وليس من شك فى أن تزاوج الأقارب كان يحل بعض مشكلات الزواج ، وأن اختيار الأبوين للعروس أو العريس كان يحل بعضاً آخر . فإذا كانت العروس من غير أهل العريس، اشترط الأبوان أن تكون « معروفة من أهل قريتها ويتوفر فيها شرطان » وإن كنا لا ندرى ماهما هذان الشرطان !

ولم يكن من اليسير على الفتيان أهل الغـزل أن يقنعوا فى زيجتهم بشرطين ، وإنما قد يجمح الخيال ببعضهم إلى زوجة مثالية تجمع بين طراوة الجسم وخفة الروح ورقة الطابع ، يصورها أحدهم فيقول :

« بهية الطلعة ، بشرتها وضاءة ، نجلاء العينين واللحظ ، حـلوة الشفتين ، عذبة الحديث ، لا تنطق بفضول ، طويلة الجيد ، نيّرة الثدى ، كستنائية الشعر ، . . . أناملها كالزهر ، مستوية العجز ، نحيلة الخصر ، متزنة الخطو » !

وإذا اتفق الأبوان والأبناء تم الزواج على ما يشتهون ، وإذا اختلفوا كانت الغلبة لأكثرهم حيلة .

ولم يتبق من وثائق العصور الفرعونية المبكرة ما يصور محافل الزواج وعاداتها ، ولكن ألمحت إليها بضع قصائد واساطير وعقود قليلة تبدأ ببداية القرن الخامس عشر ق م . فروت قصيدة غزلية أن الأم كانت تخطب لولدها أحياناً ، وروت أسطورة أن والد العروس كان يجهزها بما يتناسب مع ثرائه ، وأن العروس كانت تتلقى هدايا ذويها ومعارفها ، وتزف إلى دار عريسها حين المساء .

وعمت عقود الزواج على أن ولي أمر العروس ظل ينوب عنها في كتابة العقد حتى القرن السابع ق . م أو قبله بقليل ، ثم أباح المجتمع للعروس وللثيب بخاصة ، أن تحضر كتابة العقد بنفسها . وكان عقد القران يشهده الشهود من القرية أو الحي وتسجل أسماؤهم به . وورد من شهود عقد متواضع في مدينة طيبة ، رئيس إسطبل وكاتب وكاهن .

ويقسم الزوج خلال العقد على تعهداته بأسماء أربابه واسم فرعونه ، وينص كتابة على قيمة الصداق من أوزان الفضة ومكاييل الغلال ، فضلا على مؤجل معين يدفعه إذا نشب بينه وبين زوجته مايدعوه إلى الانفصال . وفي عقد متأخر من هذه العقود تعهد

زوج أن يقدم لزوجته نصيباً من الحنطة كل صباح ، ومقداراً من الزيت كل شهر ، وراتباً لنفقاتها الفردية كل شهر أيضاً ، وراتبا مفروضاً لتكاليف زينتها كل عام ، كما تعهد أن يدفع لها تعويضا إذا سرّحها وتزوج سواها . وتضمن العقد نفسه عبارة مقصودة ، أكد الزوج بها لزوجته أنه يعلم تمام العلم أن نفقات زينة العام تخالف راتبها الشهرى المعلوم ولم يكن تأكيده بدعة ، وإنما كان مما يقضى به العرف عامة ، لا سيما أن شغف المصريات القادرات بملابسهن وحليهن وصنوف العطور والدهون والزهور والمرايا والمكاحل والمراوح فضلا على الشعور المستعارة للخروج والمحافل ، كان شغفاً فريدا تشهد به صورهن الباقية والنماذج الكثيرة التى وجدت من أدوات زينتهن فى مخلفات المقابر .

ودلت بعض عقود الزواج على أن ولى أمر الزوجة كان يوصى لها أحياناً ببعض أملاكه حين زواجها ، وأن فوارق الطبقات لم يكن لها أثر كبير فى التفرقة بين مستوى العريس ومستوى العروس ، وإنما قد تتزوج الفتاة بأحد أتباع ولى أمرها إذا راقه وراقها ، أو يتزوج الفتى ابنة خادمة أسرته إذا راقته وراقها . غير أن هذا الترخص لم يكن متاحا دائما ، لا سيما فى بيوت الفراعنة التى استنت تزويج بعض أمرائها باخواتهم ، عن رغبة منها فى أن



وعاء طيب صغير تحمله صبية حلوة تنثني فى دلال برىء وحيوية ناطقة

تستبقى الدم الفرعونى خالصاً بغير شبهة ، وأن توثّق الأواصر بين أبناء الملكات الضرائر ، وتقلل من منازعاتهم على وراثة العرش . ولكن ينبغى أن تضيف من وجه آخر أن الأمراء والأميرات البعيدين عن صلب الفرعون الحاكم لم يتقيدوا بهذه السنة ، كما أن بعض الفراعنة استطاعوا أن يتحللوا منها ، ولم يأبوا أن يصهروا إلى العائلات الكبيرة من رعاياهم بيناتهم

وبأنفسهم أيضاً ، فقد تزوجت ابنة الفرعون شبسسكاف آخر الفراعنة الرجال فى الأسرة الرابعة ، بفتى شريف رباه أبوها فى قصره ، ولما مات شبسسكاف بغير وريث ذكر ، خلفته أخته وتزوجت أحد كبراء دولتها بعد أن عز عليها أن تتكفل بمهام الحكم وحدها . وتزوجت إحدى أميرات الأسرة الخامسة قزما ثريا وأنجبت منه بنين وبنات . وتزوج الفرعون بيى الأول أختين على التتابع لأحد كبار موظفيه ، بعد أن تبين روح الغدر من زوجته الأولى . وتزوج الفرعون أمنحوتب الثالث بفتاة من أواسط الناس تدعى « تى » استطاعت أن تأسر لبه بدلالها وذكائها وشخصيتها الطاغية .

واختلف حق الزوجة فى تصريف أمر نفسها وأمر أملاكها والوصاية على أبنائها القصّر بعد وفاة زوجها من عصر إلى عصر. فدلت وثائق بعض العصور على حريتها المطلقة فى التصرف فى أملاكها فى حياة زوجها ، والتصرف فى إرثها من تركته بعد وفاته ، وأشارت إلى حقها فى الولاية على أبنائها القصّر ، مالم يكن لها ابن كبير يرعاها ويرعاهم ويكون له عليهم نفس ولاية أبيه وسلطاته. بينما نمت وثائق أخرى عن حق الزوج فى تعيين مرب يعهد إليه بأولاده إذا أحس بقرب أجله ، أو تعيين وصى على تركته ينقل

إليه سلطته وواجباته ويخضع له أبناؤه الصغار بعد وفاته .

* * *

لم تبق أقاصيص مصرية أو أساطير تصور طباع الحموات ، ولكن تخلفت قرائن تاريخية متقطعة شهدت بتسامح الأزواج أكثر مما شهدت بتسامح الحموات . فقد تعمد بعض الأزواج الطيبين أن يصوروا حمواتهم فى مقابرهم إرضاء لزوجاتهم . وتقبل الفرعون تحوتمس الثانى زوج حاتشبسوت أن تتلقب حماته بلقب « أم الملك » أى أمه ، على الرغم من أنها كانت ضرة لأمه . ولما وافاه الموت خلفه على العرش ولده تحوتمس الثالث ، وكان ابن ضرة لحاتشبسوت ، فلم تشأ أن ترد تسامح أبيه بالحسنى ، وراوغته واستغلت صغر سنه فزوجته ابنتها وفرضت نفسها وصية عليه وشريكة له فى عرش أبيه تسع سنين ، ثم أقصته عن الحكم ثلاثة عشر عاماً وانفردت بالعرش دونه . ولما انقضى أجلها وآل السلطان إلى غريمها ، بعد أن شب عن طوقه وكثر أنصاره ، لم يذكر حماته فى حولياته بسوء ، واستمر يخص ابنتها بمركز الصدارة فى قصره ، ولكنه جازاها عن عتوّها بصورة أخرى ، فأوحى إلى أتباعه أن يطمسوا أسماءها وصورها ويمحوها من كل آثارها المصورة والمكتوبة ، وأن يهشموا تماثيلها أينما

وجدوها ، عساه ينساها وينسى الناس ذكراها .

وأحاطت بالفرعون أخناتون صاحب دعوة التوحيد ، امرأتان : أمه تى ، وزوجته نفرتيتى . وكانت تى ذات بأس ونفوذ ، وكانت تتردد على قصره من حين إلى آخر ، فيكرم مثواها ويؤدب لها المحافل ويجمع بينها وبين زوجته نفرتيتى . ورأت تى أن دعوة التوحيد التى تزعمها ولدها جرّت عليه خصومات عنيفة وألبّت عليه كبار كهنة مدينة طيبة ، فبدأت تدعوه إلى أن يهادنهم ويتخلى عن بعض المثالية فى دعوته ، لولا أن نفرتيتى لم تكن دون حماتها تى باساً وسيطرة ، فخاصمتها فى ولدها ، واستمرت تحرضه على التشيع لدعوته ، فتشتتت نفسه وتشتت جهده بين طاعة أمه ، والإخلاص لدعوته ، وإرضاء زوجته .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد

٢ — الإشتراكية والشيوعية ... للأستاذ على أدهم

٣ — الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد يونس

٤ — قصة التطور ... ... للدكتور أنور عبد العليم

٥ — طب وسحر ... ... للدكتور پول غليونجى

٦ — فجر القصة ... ... للأستاذ يحيي حقى

٧ — الشرق الفنان ... ... للدكتور زكى نجيب محمود

٨ — رمضان ... ... للأستاذ حسن عبد الوهاب

٩ — اعلام الصحابة ... ... للأستاذ محمد خالد

١٠ — الشرق والإسلام ... للأستاذ عبد الرحمن صدقى

١١ — المريخ ... ... للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى

٢٩ـــ قضيــة كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ ـ الثورة العرابيــة ـ ... ... « أحمدعبدالرحيم مصطفى
٣١ـــ فنون التصوير المعاصرة ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ـــ الرسول فى بيته . ... للأستاذ عبد الوهاب حموده
٣٣ـــ أعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمــد خالد
٣٤ـــ الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ـــ إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ـــ الذرة فى خدمة الزراعة ... « محمود يوسف الشواربى
٣٧ـــ الفضاء الـكونى ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٣٨ـــ طاغور شاعر الحب والسلام للدكتور شكرى محمد عياد
٣٩ـــ قضية الجلاء عن مصر ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٤٠ ـــ الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
٤١ ـــ العدالة الإجتماعية ... للأستاذ المستشار عبدالرحمن نصير
٤٢ ـــ السينما والمجتمع ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ ـــ العرب والحضارة الأوروبية للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
٤٤ ـــ الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع الوان المعرفة باقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

صراع على أرض الميعاد

محمد عطا

١٥ سبتمبر ١٩٦١

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ ص